HARLEQUIN

روايات احلام

حب تحت المطر

جيسيكا ستيل

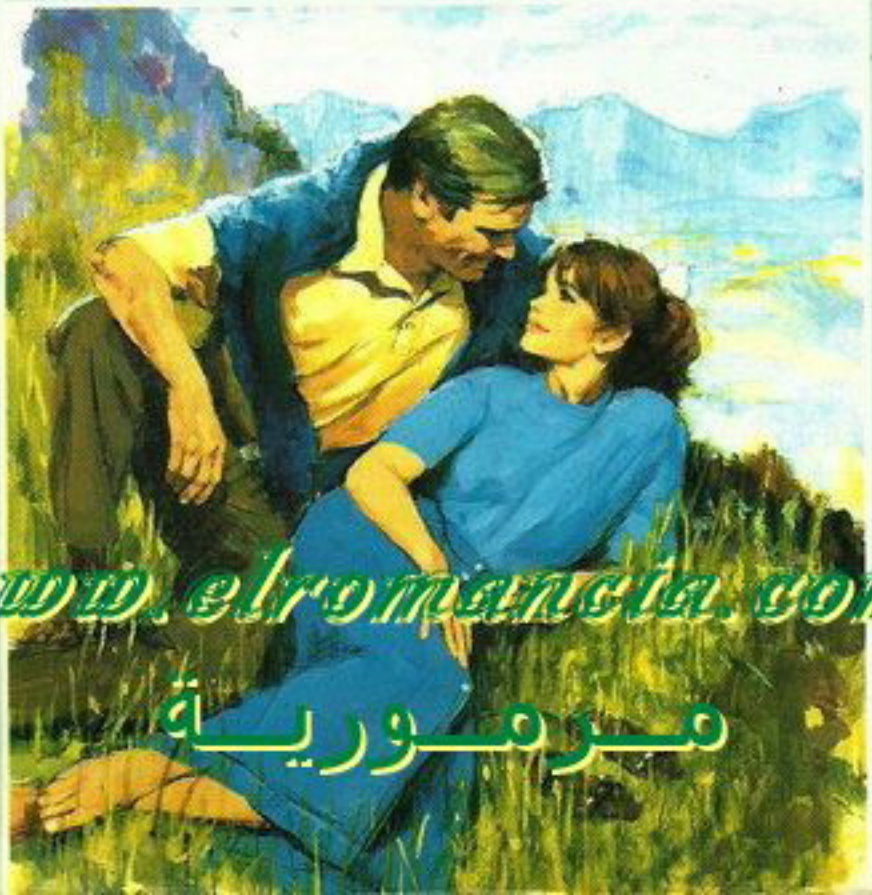

www.elromancia.com
مرمورية

حب تحت المطر

ألقى عليها الرجل الغريب نظرة حادة قبل أن ينطلق بالسيارة.

ثم سألها: «إلى أين تذهبين؟».

فأجابت بصوت متعب: «إلى أي مكان!».

ردّ ساخطًا: «أين تريدين أن أنزلك؟».

أجابت: «في أي مكان!».

لم تكن تعرف إلى أين تذهب... أو حتى أين هي الآن!

نظر إليها متفحصًا وسألها: «أتريدين أن أعيدك حيث كنت؟».

أجابت مرتجفة، بحدة وجفاء: «لا.. لا أريد العودة الى هناك أبدًا!».

www.elrowaq.com

جيسيكا ستيل

تقيم جيسيكا ستيل في قرية «ورسسترشير» الجميلة مع زوجها الرائع بيتر. يمتلكان كلبة تدعى «ديزي» تظن أنها آدمية وهما لا يحاولان إقناعها بالعكس؛ فهي تسيطر عليهما سيطرة كاملة. كان بيتر أول من شجّع «جيسيكا» على الكتابة، وبعد أن تعرضت روايتها الأولى للرفض، ظلّ يحثها على المحاولة من جديد. لحسن حظها، استطاعت حتى الآن أن تزور كل البلدان التي تحصل فيها أحداث رواياتها المختلفة وأن تجري فيها أبحاثاً تساعدها على كتابة القصص. تقول جيسيكا إن الفضل في ذاك يعود لبيتر، لأنه لطالما ساعدها وشجّعها.

١ ـ صدمة مزدوجة

انتابها الذعر بحيث لم تستطع أن تفتح الباب الخارجي المتين. ولكنها تابعت محاولاتها مع لحاق مخدومها بها إلى الردهة وهو يهتف بكلمات غير مفهومة: «لا تكوني هكذا..».

لكنها لم تنتظر لسماع البقية بل فتحت الباب بيدين مرتجفتين، ثم اندفعت إلى الخارج تحت المطر المنهمر.

لم تتوقف عن الركض إلا بعد أن نظرت خلفها وتأكدت من أن لا أحد يتبعها.

بعد مضي خمس دقائق تحوّل ركض مالون إلى خطوات سريعة. نبهها هدير محرك سيارة إلى أنه ربما قرر أن يتبعها بسيارته. وعندما لم تمر بها أيّ سيارة، بدأ الذعر يتملكها ثانيةً.

لم يقع نظرها سوى على مساحات شاسعة من الأراضي الريفية غير المأهولة، وعندما أصبحت السيارة بموازاتها تملكها الارتياح لأنها رأت شخصاً آخر غير رولاند فيليبس.

كانت ترجو أن يكون السائق أنثى، لذا خاب أملها عندما انزلق زجاج نافذة السيارة ووجدت نفسها أمام عينين رماديتين عدائيتين: «اصعدي».

فأجابت بحدة: «لا، شكراً».

أخذت تلك العينان تتفحصانها للحظة: «كما تشائين».

يبدو الرجل في منتصف الثلاثينات من عمره إلا أنها لم تهتم، وتابعت السيارة طريقها.

لاحظت مالون أن الخوف الذي تملكها لدى مهاجمة رولاند فيليبس لها خف قليلاً.

سارت متثاقلة لا تملك أيّ فكرة عن مكان تقصده. فما تريده هو أن تبتعد قدر الإمكان عن رولاند فيليبس في منزله «آلورا لودج». وكل ما تتذكره هو عدم وجود بيت آخر قبل أميال من هنا.

حذاؤها الخفيف أخذ يئنّ تحت ضغط خطواتها فلم يدهشها الأمر وسط هذا المطر الغزير. لم تبالِ بملابسها المبللة، رغم أنها ابتدأت تتمنى لو تمرّ سيارة أخرى تقودها أنثى لتوصلها معها.

تبدد خوفها، وشعرت بالبرد والبلل والتعاسة. وتمنت لو أنها قبلت أن يوصلها ذلك الرجل الغريب. لكنها بعد لحظة سخرت من هذه الفكرة السخيفة. لقد عانت من الرجال ما فيه الكفاية، فأكثرهم فاسقون! عرفت ذلك في زوج أمها وفي ابنه، وصديقها السابق، عدا عن مخدومها هذا.

استمر المطر بالهطول بغزارة، فتوقفت عن السير وأخذت تقيّم وضعها. لا بد أنها اجتازت حوالى ميل بعيداً عن المنزل. انطلقت هاربة بهذا الثوب القطني الذي ترتديه وقد منعتها شدة الغضب، حينذاك، من الانتباه إلى غزارة المطر، ومن التفكير في الصعود إلى الطابق الأعلى لإحضار حقيبة يدها. همُّها الوحيد آنذاك كان الابتعاد عن ذلك السكّير رولاند فيليبس.

تابعت مالون سيرها، وقد أصبحت خطواتها الآن بطيئة كئيبة وهي تدرك جهلها بالمنطقة، وأملها الوحيد هو أن تصادف شخصاً معتوهاً يخرج بسيارته في هذا الجوّ العاصف، ليعرض عليها إيصالها بسيارته.

من غير المعقول أن يخرج كلب من البيت في وضع كهذا، فكيف بأحدٍ ما ليعرض عليها توصيلها؟

ألهذا السبب توقف ذلك الرجل رمادي العينين؟ لم يبدُ عليه السرور

لدعوتها إلى ركوب سيارته وتوسيخ فرشها الجلدي، هذا إذا كان قوله لها بتلك الخشونة: «أدخلي»، يمكن أن يسمّى دعوة. حسناً، إنه يعلم ما يستطيع..

تناهى إليها هدير محرك سيارة.. فوقفت. كان المطر قد خفّ قليلاً.. فاستدارت وأخذت تنظر إلى السيارة البادية للعيان.

نظرت إليها بحذر وهي تدركها ثم توقفت. انزلق زجاج النافذة ووجدت عينيها الزرقاوين تحدقان في تينك العينين الرماديتين الباردتين، وأدركت أنه لا بد قام بجولة ليعود أدراجه إليها.

لم يبتسم الرجل، لم يدعها إلى ركوب دخول سيارته، بل اكتفى بالقول: «هل نلت كفايتك؟».

رأت كلامه صحيحاً، فشعرها الأشقر يلتصق برأسها، وثوبها أيضاً بساقيها، لا بد أنها أصبحت الآن أشبه بجرذ مبلول.

تنهدت وهي ترتجف. كان أمامها خياران، إما أن تطلب منه أن يبتعد، بينما وحده الله يعلم متى تصادف سيارة أخرى، وإما أن تصعد إلى سيارته.

سألته وهي ترتجف: «هل تعرض عليّ الصعود؟».

رداً عليها، انحنى نحو المقعد ليفتح لها الباب، ثم ضغط زر زجاج النافذة ليرتفع من جديد.

شعرت وكأنها في زاوية مظلمة يتصاعد منها زئير وحش مفترس، وترددت للحظة. لكن الشعور بالهزيمة غلبها.

دارت حول السيارة وصعدت إلى جانب الغريب. وعندما مدّ يده نحوها قفزت مجفلة. ألقى عليها الرجل نظرة حادة إذ لم يفته حذرها منه، ثم تابع إدارة جهاز التدفئة وتوجيهه نحوها.

دفعتها الغريزة إلى الاعتذار.. ولكن علام فكل الرجال أصحاب غرائز وهو لن يكون مستثنى. ستكون حمقاء لو فكرت خلاف ذلك.

قطعا حوالى نصف ميل، ثم سألها: «إلى أين تذهبين؟».

كان جهاز التدفئة ممتازاً وفكرت في أن تشكره لحساسيته، لكنها لم تشأ أن تبدأ أيّ حديث معه، فأجابت بصوت متعب: «إلى أي مكان».

ردّ ساخطاً: «أين تريدينني أن أنزلك؟».

أهو ساخط؟ وأجابت: «إلى أيّ مكان».

لم تكن تعرف إلى أين تذهب.. أو أين هي الآن، فهي غريبة عن هذه المنطقة تماماً.

نظر إليها متفحصاً، وسألها: «من أين أنت قادمة؟».

ما زال الحذر يتملكها، إلا أنها كانت تشعر بالدفء والراحة. واستشفت في صوته الضجر لأنه تصرّف كرجل شهم نحو شخص مثلها. تملكها شعور بأنها إذا لم تجبه حالاً، فسيفتح الباب ويدفعها إلى الخارج. كانت السيارة دافئة، وشعرت بإرهاق بالغ يمنعها من العودة تحت المطر.

فقالت: «من آلمورا لودج. أنا قادمة من هناك».

تساءلت عما إذا كان يعرف موقع «آلمورا لودج»، لكنها أدركت أنه على الأرجح يعلم عندما سألها: «أتريدين أن أعيدك إلى هناك؟».

ـ لا. لا أريد!

أجابت بحدة وجفاء وسحبت نفساً مرتجفاً. وعندما تمالكت نفسها، أضافت: «لا، شكراً. لا أريد العودة إلى هناك، أبداً».

ومرة أخرى، شعرت بالعينين الرماديتين تتفحصانها، لكن التعب والإرهاق منعاها من أن تهتم. وعلى كل حال، هو لم يقل شيئاً وإنما قاد السيارة مسافة ميلين، ثم أخذ يبطىء السيارة.

تملكها الحذر، فعدا عن مبنى مهجور إلى اليمين لم يكن في المنطقة منزل آخر.

توجه بالسيارة إلى ما بدا لها الجزء الوحيد القائم من ذلك البيت المهجور، ولاحظت عمودين حجريين على جانبي المدخل الذي كُتب عليه (هاركوت هاوس).

ـ إلى أين تأخذني؟

صرخت بخوف وقد نشطت مخيلتها. من الممكن أن تُدفن سنوات في واحد من هذه الأبنية المتداعية الملحقة بالمنزل من دون أن يعرف ذلك أحد.

فقال بصوت هادىء يتناقض مع صوتها المذعور: «أنت لا تعلمين إلى أين تريدين الذهاب، وأنا لست في مزاج مناسب لأفك الألغاز. توقفت هنا لأخذ بعض معداتي و...».

فهتفت غير مصدقة: «هل تعيش هنا؟».

ـ بل أعيش في لندن، لكنني أرمم هذا المنزل. لم أكن أنوي القدوم خلال هذه العطلة الأسبوعية، ولكن مع هذا الجوّ الممطر، جئت لأرى ما إذا كان الجزء المتداعي من السطح قد أُصلح.

بدا لها أن هذا كل ما هو مستعد لقوله، لأنه سرعان ما تابع: «عليّ القيام ببعض الأعمال التي قد تستغرق بعض الوقت. أما أنت، فإما أن تبقي في السيارة وتصابي بالتهاب رئوي، لألقي بك في أول ملجأ للمتشردين أصادفه في طريقي، وإما أن تدخلي المنزل وتجففي ثوبك أثناء انتظارك في المطبخ الدافىء».

أخذت مالون تحدق إليه بذهول عدة ثوانٍ. وصفه لها بالمتشردة جعلها تنقل نظراتها بينه وبين ثوبها.

رأت، بعينين مذعورتين، أن ثوبها كان ممزقاً في أمكنة عدة.

صرخت بصوت مخنوق وقد التهبت وجنتاها واغرورقت عيناها بدموع المذلة.

ـ إياك أن تجرؤي على البكاء أمامي! هيا بنا لندخل.

قال هذا بلهجة آمرة وهو يترجل من السيارة ليفتح لها الباب.

لم تخرج من السيارة على الفور، فقد تملكها رعب.. لن تثق بأحد مرة أخرى بسرعة. ولحسن الحظ، أن المطر قد خف. كان الرجل الغريب طويلاً، فانحنى ينظر إليها بينما غطت هي بعناد، ثوبها المكشوف، وبقيت

واقفة في مكانها رافضة أن تتزحزح.

ـ أنت لن..

ابتدأت بهذا السؤال ثم اكتشفت أنها ليست بحاجة إلى إكماله.

بادلتها العينان الرماديتان الثابتتان التحديق. أتراه أعجب بها لينتهز الفرصة؟ نظر إلى مظهرها الرث، ثم قال باختصار: «ولا بعد مليون سنة».

لم يكن رده يحتوي على مديح، إلا أنه طمأنها.

تركها لتلحق به، ثم فتح الباب الخلفي ودخل إلى ورشة العمل.

نزلت مالون من السيارة ثم أخذت تسير بحذر بين معدات البناء. كانت الردهة الخلفية مظلمة وقد توزعت في أنحائها الألواح الخشبية المتفاوتة الطول. كان النهار كئيباً، ولكن المصباح الكهربائي مضاء. أدركت أن عمال الكهرباء ما زالوا يعملون، وأن المنزل «هاركورت هاوس» لم يعد مهجوراً كما بدا لها الخارج الأمامي.

وجدت الرجل يضع إبريق الشاي على النار في مطبخ منظم وكامل التجهيزات.

وقفت بالباب وهي تقول غير واثقة: «يبدو أن زوجتك حصلت على ما يهمها أولاً».

فقال وهو يفتح درجاً ليخرج منه فوطتي مطبخ ويضعهما على المائدة بقربها: «بل أختي. فأنا غير متزوج. وفقاً لأختي فاي، المطبخ هو قلب البيت. وقد تركتها تنظمه حسب رغبتها مع بعض الإرشادات مني».

ابتدأت مالون تشعر بشيء من الارتياح معه. دخلت المطبخ، لكن عينيها كانتا تراقبانه وهو يعدّ الشاي.

ـ يوجد جهاز تدفئة كهربائي، لماذا لا تدفئين نفسك؟ وبما أنك لا تستطيعين احتضان ثوبك الممزق طوال الوقت، سأحضر لك قميصاً تلبسينه أثناء شربك للشاي؟

لم تجب، لكن لهجته الحازمة جعلتها تحيد عن طريقه وهو يخرج من

الغرفة. وعندما عاد وهو يحمل قميصاً وبعض البنطلونات، وجوربين قصيرين، كانت لا تزال واقفة مكانها.

ـ جهاز التجفيف موجود في تلك الغرفة. كما إن باب المطبخ مزوّد بقفل. لمَ لا تغيرين ملابسك بينما أذهب أنا للاهتمام ببعض الأمور؟

لم تكن مالون مستعجلة لتغيير ملابسها. شعرت بأن هذا الرجل يعرف كيف يتظاهر بالرقة والشهامة، لكنها لم تعد تنخدع بالمظهر الخارجي. تقدمت نحو باب المطبخ وأقفلته.

استعملت المنشفة بسرعة، ودون الاهتمام بمظهرها. وضعت ثوبها في جهاز التجفيف، بينما ارتدت الملابس التي أحضرها لها الرجل. ثنت كمي القميص وكذلك ساقي البنطلون وحارت في كيفية تثبيتهما. وعندما عاد الرجل الغريب، كانت تلف شعرها المبلل بأكبر منشفة وجدتها شاعرة بتحسن بالغ.

أثناء فتحها لخزائن المطبخ، وجدت فنجاني شاي ومعلبات مختلفة جهزتها أخته.

فتحت مالون قفل الباب. وعندما دخل الرجل، قالت له بما يشبه الاعتذار: «فكرت في أن أسكب الشاي قبل أن يبرد».

ـ كيف حالك الآن؟

سألها وهو يحمل فنجاني الشاي إلى المائدة الفسيحة. قدم لها كرسياً، ثم جلس في الناحية الأخرى من المائدة.

فأجابت شاعرة بثقة بعد أن جلست على الكرسي التي قدمها إليها: «أشعر بالدفء والجفاف».

ـ هل لي أن أعرف اسمك؟

سألها وهما يهمّان بشرب الشاي. واعترفت بينها وبين نفسها بأن لا رغبة لها بذلك، بعد ما عانته اليوم.

تابع وكأنه يشجعها على ذكر اسمها: «أدعى هاريس كويليان».

ـ مالون بريتويت.

ولم تزد، وساد الصمت في الغرفة.

سألها وهو ينهي فنجانه ويضعه على المائدة: «هل هناك ما تحبين أن تخبريني به؟».

لا شيء..! أخذت تفكر سراً وهي تحدق إليه. تألقت عيناها العميقتا الزرقة فيما عاد اللون إلى بشرتها الجميلة. جذبت نفساً مرتجفاً فهي تدرك أنها مدينة لهذا الرجل بأكثر من مجرد كلمة (لا). لم يكن مضطراً لأن يقف وينتشلها من ذلك الوضع ولا مرغماً على مدّها بملابس جافة. واعترفت لنفسها بأن شهامة هاريس كويليان أشعرتها بالدفء وأعادت إليها الثقة بالطبيعة البشرية.

سألته: «ما.. ماذا تريد أن تعلم؟».

هز كتفيه وكأن ذلك غير مهم، لكنه أجاب: «إنك شابة مليئة بالكآبة، ولا يهمك أين تذهبين، عدا عن نفورك الواضح من العودة من حيث جئت. ربما يُستحسن أن تخبريني عما حدث في «آلمورا لودج» فأخافك إلى هذا الحد».

لم تشأ أن تخبره بشيء كهذا، فسألته: «هل أنت مخبر سري؟».

فهز رأسه: «لا، أنا أسكن المدينة وأعمل في الموارد المالية».

تكهنت من النظر إليه أنه يتربع على عرش دنيا الأعمال لأنه يصلح هذا المنزل الفسيح الذي يكلف ثروة. ومع ذلك، لم تشأ أن تجيب عن سؤاله.

فأعاد صياغة السؤال: «لأي سبب كنت تزورين «آلمورا لودج»؟».

بقيت على عنادها لا تجيب، ثم اكتشفت أنه يوازيها تصميماً في الحصول على جواب، إذ قال بإلحاح: «آلمورا لودج يماثل هذا المكان عزلة. يقتضي الوصول إليه مواصلات خاصة».

ـ كان عليك أن تكون مخبراً سرياً.

ابتدأت تشعر بالاستياء إلى حد لم تعد ترى معه السيد هاريس كويليان

شهماً على الإطلاق!

ـ ما الذي أخافك يا مالون وجعلك تهربين من دون أن تجدي وقتاً لتأخذي مفاتيح سيارتك؟

فانفجرت تقول: «لم أجد وقتاً آخذ فيه مفاتيح سيارتي لأنني لا أملك سيارة!».

ابتسم، فقد جعلها تتكلم: «وكيف ذهبت إلى هناك إذن؟».

ابتدأت تكره هذا الرجل: «أحضرني رولاند فيليبس من المحطة وذلك منذ ثلاثة أسابيع ونصف».

تكلمت بحدة فاكفهر وجهه: «ثلاثة..».

سكت هاريس كويليان فجأة وقد اسودت ملامحه، ثم عاد يسألها: «أنت أقمت هناك؟ مع فيليبس في «آلمورا لودج»؟ هل أنت خليلته؟».

فقالت صائحة: «لا. لست كذلك! وما كنت كذلك قط!».

أغضبتها هذه الصفة، ووقفت تحملق في وجه هاريس كويليان الكريه: «ولأنني رفضت تحرُّشاته تعاركت معه اليوم!».

وأخذت ترتجف، فوقف على الفور واقترب منها، لكن مالون لم تكن تريد أي نوع من المواساة من أي رجل، فتراجعت بسرعة.

وعندما تكلم، كان صوته هادئاً مواسياً: «هل تعاركت معه؟».

فأجابت وقد هدأ صوتها: «حسناً، لم يضربني، رغم أنني أعاني من رضوض في جسدي جرّاء خشونته. أنا التي تعاركت معه، في الحقيقة، لأخلص نفسي منه. كان يشرب ولكنه لم يفقد شيئاً من قوته».

ـ هل استطعت التحرر منه قبل..؟

فقالت هامسة: «نعم».

شعرت بإعياء لمجرد تذكرها ما حدث، ثم أدركت أن لونها شحب عندما قال لها: «ربما يجدر بك أن تجلسي، يا مالون. أعدك بأن لا أؤذيك».

بدت لها العودة للجلوس فكرة حسنة. عادت إليها قوتها، وكان هذا

كافياً لتقول بحزم: «لا أريد أن أتحدث عن ذلك».

عاد هاريس كويليان إلى مقعده ثم قال: «لقد أُصبْتِ بصدمة. ومن الأفضل أن تتخلصي منها بالكلام».

فردّت عليه بحدة: «هذا ليس من شأنك».

ـ بل هو شأني!

كان جوابه خشناً وعزت الأمر إلى أنه انتشلها من مواجهة الرياح ومنحها ملجأ. تابع يقول بحزم: «إما أن تخبريني يا مالون، وإما...».

نظرت إليه مالون، لم تهتم كثيراً بكلمته تلك بينما تابع يقول: «وإما سأضطر إلى التفكير جدياً في أخذك إلى مخفر الشرطة لتقديم شكوى محاولة اغتصاب ضد رولاند فيليبس..».

ـ لن أفعل شيئاً من هذا النوع!

قاطعته بقولها. صحيح أن رولاند فيليبس يستحق أن يُتهم بمحاولة اغتصاب، إلا أن هناك اعتبارات أخرى يجب التفكير فيها. تعلم مالون أن تهمة الاغتصاب، وما يصحبها من تشهير، ستسبب لأمها قلقاً خطيراً. لكن أمها بدأت الآن تشعر بالسعادة بعد سنوات من التعاسة، ولن تفسد عليها تلك السعادة.

وحملقت بعناد في هاريس كويليان، فبادلها نظرتها وهو يقول: «الخيار لك».

استمرت تحملق فيه من دون أن يؤثر ذلك فيه. وثار غضبها.. ماذا جرى له؟ هل لأنه أوصلها بسيارته وأعطاها ملابس جافة..؟ حوّلت نظراتها عنه. لا بد أن ثوبها قد جفّ الآن. ونظرت إلى نافذة المطبخ، وتملكها اليأس.. فقد كان المطر ينهمر بغزارة.

وقالت بجفاء: «كنت أعمل لديه».

ـ رولاند فيليبس؟

ـ وضع إعلاناً يطلب فيه مدبرة منزل، والأفضلية لمن تحسن الأعمال

المكتبية. وكنت بحاجة إلى مكان أسكنه.. ووظيفة؛ وهكذا تقدمت.

ـ وهل أجابك خطياً؟

ـ اتصل هاتفياً. إنه يعمل مشرفاً على سلسلة مطاعم في أوروبا. قال إنه نادراً ما يأتي إلى بيته هنا..

فسألها هاريس كويليان بخشونة: «وهل وافقت على العيش معه من دون أن تسألي عنه أولاً؟».

فانفجرت تقول ساخرة: «أن تصل متأخراً خير من ألاّ تصل أبداً».

شعرت بالارتياح وكأن هذا الرجل الحازم أمدّها بالطاقة، وتابعت: «قال إنه بحاجة إلى أن أبدأ عملي على الفور وقد ناسبني الأمر جداً. قال إنه متزوج و..».

فقاطعها: «هل تعرفت إلى زوجته؟».

ـ كانت خارج البلاد، إنها تعمل في مؤسسة خيرية للأولاد وقد سافرت لتوّها. لم أعرف إلا بعد وصولي إلى «آلمورا لودج»، لكن الأمر لم يزعجني بشكل خاص. كان رولاند فيليبس يعمل بعيداً عني، أكثر الأحيان. في الواقع، نادراً ما كنت أراه حتى هذه العطلة الأخيرة.

ـ هل هذه أول عطلة أسبوعية يمضيها في بيته؟

ـ نعم. وصل مساء الجمعة متأخراً. وهو..

وعندما سكتت قال يستحثها: «وهو ماذا؟».

ـ حسناً، كان مهذباً مساء الجمعة، وأمس أيضاً، رغم أنني ابتدأت أشعر بعدم الارتياح.. ليس بسبب ما يقوله بل لما كان يتضمنه قوله من أشياء فاحشة.

ـ ألم يكن عدم ارتياحك كافياً لكي يجعلك تغادرين منزله، حينذاك؟

كان هذا تدخلاً من كويليان فكرهته مالون، وردت عليه بحدة: «وأين أذهب؟ لقد تزوجت أمي حديثاً، ومن غير المناسب أن أنتقل معها إلى بيتها. إذا لم أحصل على راتبي من رولاند فيليبس، فلن أستطيع الذهاب إلى أي

مكان».

ـ هل أنت مفلسة؟

سألها باختصار ولكنها استشاطت غيظاً. يكفيها اضطرارها إلى الحديث عما حدث لها، لذا لن تضيف أنها لا تملك مكاناً تبيت فيه ليلتها.

ـ نسي أن يترك نقوداً كمصروف لبيته، فاضطررت لإنفاق ما لديّ من دكان القرية الذي يبعد ميلاً.

ـ ألم تفكري أبداً في أن تطلبي منه نفقات للمنزل؟

ـ ماذا؟

اعترضت على استنطاقه لها، لكنه عندما نظر إليها ببرودة، وجدت نفسها تعترف: «بدا لي ذلك مهيناً ففكرت في أن أدع ذلك حتى أستلم منه أجري. حينها، كان رولاند فيليبس قد شرب الكحول كثيراً أثناء الغداء ثم.. ثم.. ثم يبدو أنه ظنني أشجعه عندما قلت له أن يرفع يده الكريهة عني. لم يخطر ببالي، عندما استطعت الهرب منه، أن أتسكع قربه لأتحدث إليه عن النقود التي يدين لي بها! انطلقت هاربة من الباب بأقصى سرعة. والآن، هل اكتفيت؟».

لم تعرف ما إذا كان راضياً حقاً عن اعترافاتها لأن صوت ارتطام عنيف فوقهما صرف أفكارهما عن أي شيء آخر.

وفي غضون ثانية أصبح هاريس كويليان في الردهة وأخذ يصعد السلم ركضاً وتبعته مالون. كان المكان عائماً بالماء وأحد أبواب غرف النوم مفتوحاً. ومن دون تفكير، اندفعت إلى الداخل لتقديم المساعدة. كان واضحاً أن السطح لا يزال ضعيفاً ومع تساقط المطر انهار سقف إحدى الغرف. وسألته: «أين تضعون الدلاء؟».

وبعد ساعة، انتهى تنظيف الغرفة من الماء والحطام وعادت مالون إلى المطبخ. وكانت قد استعملت الفوطة التي لفت بها شعرها لعدم وجود خرق لمسح الأرض.

لحسن الحظ، كان شعرها قد جفّ الآن، وعندما دخل هاريس كويليان المطبخ رأها تمشط شعرها الأشقر الطويل. لم تعرف ما إذا كان عملها هو الذي جعلها تشعر بمزيد من المعافاة، وبالقدرة على تقييم خياراتها بمنطق أكثر مما فعلت.

قال لها وعيناه تتأملان لون شعرها الحقيقي: «شكراً على المساعدة، عملك كان رائعاً».

لم تستطع أن تقول له إنه كان متكاسلاً، لأنه حمل الأشياء الثقيلة، فأجابت: «كان عملاً مشتركاً بيننا».

حسب علمها، كان شعرها مشعثاً متشابكاً، ووجهها خالياً من أيّ زينة، كما أنها ترتدي قميص كويليان وبنطلونه الفضفاضين، وبفضل تنقلها حافية في الماء في الطابق الأعلى أصبحت الآن مبلّلة. قالت بتكلف مرح: «من الأفضل أن أبدأ بالتفكير في ما عليّ أن أفعله».

ـ بشرط ألاّ تعودي إلى «آلورا لودج».

قال هذا فجأة بلهجة عدائية. لديه الموهبة لتفجير غضبها على الفور: «وهل أبدو غبية إلى هذا الحد؟».

تكلمت بغضب، لكنها تعلم أنها ستطلب منه العون، لذا عليها أن تكبح كرامتها وتتنازل عن عليائها فقالت مكرهة: «كنت.. أتساءل إن كنت تتكرّم وتوصلني إلى يوركشاير؟».

ـ وهل تعيش أمك هناك؟

ـ ليس لدي مكان غيره لأذهب إليه.

ـ ولكن، ألا تريدين الذهاب إلى هناك؟

ـ عاشت أمي أياماً صعبة وهي سعيدة الآن لأول مرة منذ سنوات. لا أريد أن أسبب لها القلق خصوصاً في شهر عسلها. لا أعرف الآن ما العمل.

ساد صمت قصير ثم قال: «أنا أعرف».

نظرت إليه بدهشة.. حذرة: «تعرف؟».

ـ اهدئي واصغي إلى ما سأعرضه عليك.

ـ ما ستعرضه عليّ؟

سألته وعيناها إلى الباب، مستعدة للهرب لدى أي تصريح منافق يدلي به.

ـ استريحي، يا مالون. ما سأعرضه عليك واضح للغاية. أنت بحاجة إلى عمل، مع مكان للسكن، كما أنني بحاجة إلى وكيل عني هنا.

فحملقت فيه: «وكيل؟ هل تعرض عليّ أن أعمل لديك وكيلة؟».

ـ الأمر عائد لك كلياً، فإما أن تقبلي وإما أن ترفضي. ولكن، كما ترين، المكان يُعاد بناؤه وأنا بحاجة إلى شخص هنا ليشرف على عمّال الأدوات الصحية، والنجارين، والفنيين ومثل هذه الأمور. أي ملاحظة الأمور عموماً، إذا تسرّب الماء من سقف ما. لقد رأيت لتوّي طريقة معالجتك للأمور الطارئة. وفيما بعد، سأكون بحاجة إلى مشرف على العمال وعلى الأثاث..

لم يكن بحاجة إلى الاستمرار، فقد أخذت فكرة تامة. ولأنها عانت لتوّها من مخدومها السابق فكرت في أن هذا العمل يناسبها تماماً لفترة قصيرة، إذ سيمنحها سقفاً أثناء بحثها عن عمل آخر...

ـ أين سيكون مركز هذا العمل المثير؟

سألته محاولة ألاّ تفكر في أن هذا العمل حل رائع لمشاكلها. إذا قبلت عمل المراقبة هذا، فلن يكون عليها أن تتطفل على أمها وزوجها في بداية حياتهما الزوجية معاً.

وأجاب: «هذا المطبخ هو، تقريباً، المكان الوحيد المريح في هذا المنزل، لذا لدينا أنا وأنت، مصلحة مشتركة..».

فقاطعته بارتياب: «وأين سأنام؟».

تأملها لحظة أو اثنتين، ثم قال بهدوء: «أنت لا تثقين بالرجال، أليس كذلك؟».

ـ فلنقل إنني عرفت ما يكفي من الرجال الذين يظنون أنني متلهفة للخروج معهم.

ـ وهل لديك تجارب عدا فيليبس؟

تجاهلت مالون هذا السؤال. كانت تجربتها مع رولاند فيليبس هي الأسوأ، لكنها لا تنوي أن تخبر كويليان عن زوج أمها السابق وابنه ولا عن خطيبها السابق المتقلب العواطف.

وعادت تسأله: «أين سأنام؟».

كانت تدرك أن عليها أن تفكر بجدية في عرض العمل هذا.

ـ حالياً، هناك غرفتان صالحتان للسكن، لكنهما غير مطليتين. تكفيك واحدة منهما وهي تحتوي على الكثير من الأثاث، لكنها غرفتي التي أمضي فيها عطلة الأسبوع.

ومرة أخرى ألقت نظرة سريعة على الباب بينما كان يتابع: «لكنني سأعود إلى لندن هذا المساء، وبهذا تكون لك حتى أرسل إليك سريراً آخر. ربما غداً أو الثلاثاء. هل لديك مانع من البقاء هنا وحدك؟».

ـ لا، أود ذلك.

أجابت بصراحة وصدق، وهي لا تكاد تصدق هذا التحول المفاجىء في الأحداث.

ـ هذا حسن.

شعرت نحوه بالمودة وهي تراه لا يشعر بأي جرح في كرامته لأن جوابها بدا وكأنها تقول إنها لا تمانع حتى لو تركها الآن وخرج.. وأنها تفضّل بُعده عنها على صحبته. وتابع هو: «إذا قبلت هذا العمل، فسأرتب أمر إحضار بعض الأثاث باكراً، وعند نهاية الأسبوع تكونين مستقرة في غرفتك».

ـ هل ستكون هنا مرة أخرى في العطلة الأسبوعية؟

سألته بتحفظ فتأملها بثبات: «هل أنت دوماً بهذا الاحتراس؟».

ـ لا، وإلاّ لما كنت في الوضع الذي أنا فيه!

ـ إذن فأنت قلقة من أن أمضي ليلة معك في البيت نفسه؟

لم تجب، وبعد لحظة قال: «اشتريت هذا المنزل لكي أرتاح فيه آخر الأسبوع. ومن الواضح أن إصلاح «هاركورت هاوس» سيستغرق وقتاً طويلاً. ولكن إذا وافقت على البقاء هنا، فيمكنك الاتصال بي أو بسكرتيرتي عند حصول أيّ مشكلة، مثل تسرُّب الماء، أو ملاحقة العمال.. فأحضر. أثناء وجودي، سآخذك إلى فندق ثم أعود فأحضرك قبل عودتي إلى لندن. ما رأيك بهذا؟».

ـ إلى متى سيستمر هذا؟

سألته ذلك، عالمة بأن عليها أن تكون متلهفة لاقتناص هذه الفرصة. ولكن الخوف ما زال يتملكها، فقالت: «عندما تهدأ أعصابي، سأبدأ بالبحث عن عمل أكثر استقراراً».

ـ لا أظن أن العمال سينتهون قبل ثلاثة أشهر، لكنني لن أتمسك بك كل هذه المدة، إذا وجدت عملاً مناسباً.

سحبت مالون نفساً عميقاً، ثم قالت قبل أن تغير رأيها: «أقبل هذا العرض».

ثم انتبهت فجأة إلى ملابسها، فهتفت: «ملابسي. لا يمكن أن أطوف في البيت مرتدية قميصك وبنطلونك ثلاثة أشهر».

فقال بهدوء: «سآخذك بالسيارة إلى «آلورا لودج» لتحضري أمتعتك».

ـ وهل ستأتي معي أيضاً..؟

وبدا الخوف في صوتها، فتوتر فكه: «لن أتركك تذهبين وحدك».

قال هذا بحزم، ثم نظر إلى ساعته. عندما نظر إليها، رأت في عينيه نظرة فولاذية، فتملكتها الحيرة وهو يقول: «حان الوقت لأن أذهب وأتحدّث إلى صهري».

نظرت إليه بصمت من دون أن تفهم ما قاله. وسألته: «صهرك؟».

سار هاريس كويليان نحو باب المطبخ، وقد بدا مصمماً على الذهاب

معها: «رولاند فيليبس هو زوج أختي فاي».

نظرت مالون إليه فاغرة فاها. لم تستطع أن تتذكر ما قالته له. ولكن ما تعرفه هو أنها أخبرته بصراحة أنّ زوج أخته هاجمها عمداً!

ابتدأ الغضب يتملكها من كويليان، كيف يجرؤ على ذلك؟ لا بد أنه أدرك أنها ما كانت لتخبره شيئاً عن رولاند فيليبس لو علمت أنه صهره!

وأدركت أن هاريس كويليان لم يخبرها بذلك، لتتابع حديثها. لا بد أنه تعمّد ذلك... كيف أقدم على ذلك؟

* * *

www.elromancia.com

٢ ـ سعيدة برؤيتك

الغضب الذي شعرت به مالون كان عارماً فصاحت به: «كان عليك أن تتكلم. تركتني أخبرك بكل شيء بينما كنت تعلم طوال الوقت..».

فقاطعها بحدة دون أن يؤثر فيه غضبها: «ألم تكن تلك الحقيقة؟ هل تقولين الآن إنك كنت تكذبين؟».

ـ لم أكن أكذب وأنت تعرف ذلك تماماً.

ردت عليه بحدة. هل ظن أنها خرجت تتنزه مرتدية ثوباً قطنياً في ذلك الجوّ العاصف؟

فسألها: «ما الذي يغضبك إذن؟».

ـ لأن.. لأن..

تلعثمت قبل أن تتمالك نفسها: «ما كنت لأخبرك بشيء لو علمت أنه قريب لك».

ـ يقربني بالمصاهرة.

وصرف بأسنانه. بدا واضحاً أن فكرة قرابته لذلك الرجل جرحته.

ـ هل ستقول شيئاً لأختك؟

ـ أعطيني سبباً وجيهاً يمنعني من أن أخبرها.

حدقت إليه غاضبة: «إذا كنت لا تستطيع أن ترى أن ذلك يضرّ بزواجها..».

ـ لقد حصل الضرر فعلاً، فأختي وذلك الرجل انفصلا منذ ثلاثة أشهر.

تلاشى غضب مالون بنفس السرعة التي تصاعد بها، وتمتمت: «لم يقل ذلك قط. جعلني أعتقد أنها سافرت لتوّها في رحلة عمل».

ـ هل رأيت في المنزل ما يثبت وجود فاي؟

فتمتمت بملل: «ها قد عدنا الآن. بعد أن صرت أعلم، يمكنني أن أرى أنه لا يوجد أي دلائل أنثوية في ذلك البيت».

ـ هل كان البيت بحاجة إلى ترتيب عندما وصلت؟

ـ كان فعلاً كذلك. هل هما منفصلان قانونياً؟

فهز رأسه: «إنه انفصال مؤقت بالنسبة إلى فاي، وهي تأمل في أن يعودا إلى بعضهما بعد هذه التجربة».

ـ هذا مؤلم حقاً. لن ينفع بشيء أن تخبرها عني.

تملكتها الحيرة لوقوع امرأة تملك ذرة من الذكاء في حب رجل مثل رولاند فيليس، فكيف بأن تتزوجه وتبقى معه؟

فسألها عابساً: «أتقترحين ألاّ أخبرها؟ أتظنين أنه من الأفضل لها أن تعود إليه وهي لا تعلم بما قد يفعل مستقبلاً؟».

ـ قد تكون على علم بالأمر، لكن حبها له يجعلها تصفح..

فقاطعها بخشونة: «ما حاوله معك لا يقبل الصفح».

تنفست مالون وهي ترتجف: «أنا.. لن أناقشك بهذا».

ـ هل أنت مستعدة؟ سنذهب ونحضر أمتعتك.

شعرت فجأة بالنفور من أن ترتدي الثوب الذي مزقه رولاند عليها. وأدركت أنها لن ترتديه مرة أخرى أبداً. لم تعتزم استعارة مشط، لأنه لم يعرض عليها ذلك وهي لم تشأ أن تطلبه منه. وتمتمت تقول: «أبدو مثيرة للسخرية».

ـ هل يهمك الأمر؟

www.elromancia.com

أغاظها أنه يراها أيضاً مثيرة للسخرية. ما كان له أن يوافقها وأجابت باختصار: «أبداً».

وتأخرت قليلاً لتنتعل حذاءها الخفيف ثم لحقت به إلى الردهة.

عندما اقتربا من «آلورا لودج»، توترت أعصابها. وبينما كان هاريس يوقف السيارة أمام الباب، ابتدأت ترتجف.

ـ هل ستدخل معي؟

سألته وهي ترتجف مستعيدة كل الأمور الفظيعة التي حدثت في ذهنها.

وفجأة، شعرت بالخوف يمنعها من مغادرة السيارة.

وأجابها متجهم الوجه: «سأبقى معك خطوة خطوة».

كان الباب الخارجي مشرّعاً. ولم يزعج هاريس نفسه بطرق الباب بل دخل بطوله الفارع. ولكن، لم يكن ثمة أثر لرولاند فيليبس، فقال لها: «سأغيب دقيقة واحدة، فإذا رأيت رولاند قبلي، إصرخي».

انتظرت مالون أسفل السلم بينما توجه هاريس إلى غرفة الاستقبال. وعندما غاب عن بصرها انتظرت بقلق. ثم، خيّل إليها أنها سمعت صوتاً قصيراً خافتاً قد يكون آهة مكتومة ثم صوت ارتطام. لكنها لم تشأ أن تغامر لمعرفة ما يجري.

وكما وعد، ظهر هاريس بعد دقيقة واحدة، ولازمها في كل خطوة وهما يصعدان إلى الطابق الأعلى. وقف بجانبها وهي تحزم حقائبها وتستعيد حقيبة يدها.

كانت متشنجة، واثقة من أن رولاند فيليبس سيظهر أمامهما في أي وقت، ليرى من يغزو بيته، لكنها عادت إلى السيارة وجلست إلى جانب هاريس من دون أن ترى مخدومها السابق، وقد ابتدأت تشعر بتحسن.

وعندما خلفا «آلورا لودج» وراءهما، قالت له: «شكراً».

ـ بكل سرور.

أجابها بنبرة غريبة وكأنه كان مسروراً حقاً. استقرّ بصرها على يديه

المسكتين بالمقود ورأت أصابع يده اليمنى محمرّة قليلاً. تذكّرت فجأة تلك الآهة والارتطام، فهتفت به: «هل رأيت رولاند فيليبس؟ لم يكن لطيفاً منه أن يطبع هذا الأثر على يدك».

تكلمت قبل أن تستطيع منع نفسها. فقال مؤيداً قولها: «إنه يستحق ذلك وأكثر».

التفتت تنظر إلى فكه الصارم، وفمه الحازم، وعينيه الثابتتين. كانت تشعر نحوه بالمودة: «لست بحاجة إلى عذر لكي تضربه».

قالت له هذا وقد تكهنت بأنه كان يكبح حافزاً لمعاقبة صهره لأنه يعلم أن أخته تريد أن تعود إلى زوجها، ومنحه هذا الوضع اليوم العذر الذي كان يتطلع إليه لضربه.

أجابها: «هذا صحيح. ولسوء الحظ، لا يزال تحت تأثير الشرب، ولهذا اضطررت لضربه مرة واحدة فقط».

لم تستطع مالون إلا أن تبتسم وهي تتصور رولاند فيليبس يتهاوى على الأرض.

وعندما وصلا إلى «هاركورت هاوس»، حمل حقائبها صاعداً بها السلم. الغرفتان الصالحتان للسكن كانتا متجاورتين. وضع حقائبها في الغرفة التي لم تكن تحوي سريراً بعد ثم أراها الغرفة الأخرى.

ـ وضعت فيها فاي الملاءات والمناشف.

وعندما وقفت مالون مترددة عند العتبة، تابع بعفوية: «سأرتب أمر وضع قفلين لهاتين الغرفتين غداً».

ثم حمل حقيبته التي بدا واضحاً أنها لليلة واحدة، قائلاً: «عليّ أن أذهب».

ابتدأت مالون ترتاب في أن لديه موعداً هاماً الليلة، وتمنت له التوفيق. نزلت معه إلى الطابق الأسفل، متطلعة إلى اللحظة التي يخرج فيها، لتغيّر ملابسه التي ترتديها.

عندما رافقها إلى المطبخ، قالت له: «كنت في غاية الشهامة معي. لا أدري ما كنت سأفعله لو أنك لم تعد أدراجك لتنتشلني».

فقال وهو يخرج محفظة نقوده ليناولها رزمة منها: «وأنت ساعدتني أيضاً. هل نسيت؟ نظراً إلى خبرتك السابقة، من الأفضل أن تأخذي راتبك مقدماً على أن تأخذيه متأخراً».

فابتدأت بالاحتجاج: «لا أريد أن..».

ـ لا تصعّبي الأمور، يا مالون. أنا أعلم أنك ستستحقين كل فلس منه. لن يكفي أجرك حتى لتموين العمال بالقهوة والشاي يومياً.

ثم ابتسم، وهي المرة الثانية التي تراه مالون فيها يبتسم فأحدث تأثيراً غريباً على نيتها بالاحتجاج. وكان يقول: «بما أننا نتكلم عن الطعام والشراب، أعدّي لنفسك وجبة من المعلبات واللحوم التي في الثلاجة. إنها محفوظة لاستعمالك الشخصي فكلي جيداً».

تحوّلت نظراته إلى قوامها الذي بدا رشيقاً حتى في ملابسها الشنيعة. وجمدت مالون مكانها، محاولة كبح شعور بالذعر، ثم تقابلت عيناها الواسعتان بعينيه الرماديتين، فتوقف عن الابتسام: «لديك وجه رائع الجمال، يا مالون، وكذلك قوام بديع للغاية. لقد أصبت بذعر بالغ، ولكن، صدقيني، لن يحاول كل رجل تتعرفين إليه اغتصابك».

إنه يكشف بذلك ما كان يرعبها، فابتلعت ريقها بصعوبة. هذا الرجل رغم إيجازه في الحديث وحدّة طباعه يظهر لها كل رقة وشهامة.

ـ ولو بعد مليون سنة؟

عند ذلك ضحك. وفجأة، شعرت بالارتياح معه حتى أنها ابتسمت له. أدركت أنه تذكّر من دون جهد، قوله لها عندما تلكأت في النزول من سيارته خوفاً من نواياه المبيتة. وأجابها: «شيء كهذا».

فقالت بلهجة آمرة: «اذهب إذن».

ثم عادت فتذكرت أنه أصبح الآن رئيسها في العمل، فأضافت: «يا

سيدي».

ناولها بطاقته: «اتصلي بي عند الحاجة. هل ستكونين بخير وحدك؟ ألا تخافين؟».

كانت لهجته جادة، فأجابت: «سأكون بخير. في الواقع، ابتدأت، أشعر بأنني أحسن مما كنت عليه منذ فترة طويلة».

حدق هاريس كويليان إليها متأملاً، ثم أومأ راضياً وهو يتناول حقيبته الصغيرة ومفاتيح سيارته: «قد أحضر يوم الجمعة».

ثم خرج.

تلك الليلة راودتها أحلام مزعجة جعلتها تستيقظ مرات عدة شاعرة بعدم الأمان وبأن حياتها مهددة، ثم استيقظت مرة أخرى في الرابعة صباحاً عند بزوغ الفجر وابتدأت تشعر بالاطمئنان.

استلقت مستيقظة تتأمل الغرفة بسقفها العالي ونوافذها الخالية من الستائر. كان هناك بساط كبير على الأرض وخزانة كبيرة.

أدركت مالون أن المنزل سيعود إلى مجده السابق بعد أن يتم إصلاحه. كانت تحب المنازل الأثرية الفسيحة.. فقد نشأت في واحد منها.

وغامت عيناها. لم تكن تحب الاستسلام للذكريات، لكنها لم تستطع منع نفسها من التفكير في أيام طفولتها السعيدة، ووالديها المحبين وخططهما لمستقبلها.. لقد استحال كل ذلك إلى سراب.

كانت هي وأمها تضطران لتناول العشاء من دون والدها الذي كان جرّاحاً يكدّ طوال ساعات اليوم، وغالباً ما يتأخر عن وجبات الطعام.

وذات يوم قالت أمها: «سنبدأ من دونه».

وإذا بجرس الباب يدق ليطل أحد زملائه الذي جاء ليخبرهما بأن سيرس بريتويت تعرّض لحادث سيارة. بذل طاقم المستشفى كل ما بوسعه لإنقاذه، لكنهم علموا من خطورة إصاباته أنهم سيفقدونه.

وفاة الأب حطمت ابنته تماماً، وكذلك أمها التي عجزت عن مواجهة ما

حدث. وبفضل المعونة الطبية، تجاوزت الأم محنتها ولكن مالون لم تستطع منع نفسها من التفكير في أن أمها كانت تتمنى لو ماتت مع زوجها.. وأنها من أجل ابنتها فقط، تناضل لكي تشفى.

مرّت أيام كانت مالون تمتنع فيها عن الذهاب إلى المدرسة كيلا تترك أمها بمفردها، فانحدر مستواها بعد أن كانت في القمة.

وبعد مرور سنتين تعرفت أمها إلى أمبروز جنكنز. وكان نقيضاً لأبيها الهادىء. كان مفاخراً متباهياً بينما كان أبوها متواضعاً، يتجنب العمل بينما كان أبوها مجّداً نشيطاً. لكنه، في البداية، بدا قادراً على إسعاد أمها، ولهذا تسامحت مالون معه كثيراً. لم تستطع أن تحبه، لكنها حاولت جهدها أن تكون منصفة، مدركة أن حبها البالغ لأبيها جعلها غير قادرة على مقارنة أي رجل آخر به.

وهكذا، عندما أخبرتها أمها، بعد أسابيع من لقائهما أنهما سيتزوجان، عانقتها مالون وتظاهرت بالابتهاج. ولأجل أمها، رضيت بانتقاله إلى بيتهم. وكان لدى أمبروز ابن في السابعة والعشرين من عمره اسمه لي وجدته مالون بغيضاً.

أما ما لم تتوقعه مالون فهو أن ينتقل لي جنكنز معه أيضاً. كانت في الخامسة عشرة من عمرها، وبدلاً من أن تكون مزهوة بجمال شعرها الأشقر وقوامها، أصبحت ميّالة إلى إخفاء قوامها في كنزات فضفاضة، وتمشيط شعرها إلى الخلف وعقده بسبب تحرُّش لي المتكرّر بها.

لم تستطع أن تخبر أمها، وهي التي عانت كثيراً، رغم أنها أوشكت على ذلك ذات يوم حين دخل لي غرفتها. صرخت به: «أخرج من هنا!».

لكن، وبدلاً من أن يترك غرفتها، تقدم أكثر إلى الداخل وحاول معانقتها.

عضته.. فانهال عليها بالسباب، لكنها لم تهتم. وعندما أجبرته على تركها لم تبقَ في غرفتها.

كانت ترتجف، فأرادت أن تلوذ بأمها وتخبرها، لكن رغبتها بحماية أمها كانت تمنعها. وبدلاً من ذلك، وضعت كرسياً تحت مقبض الباب في غرفتها.

ثم حدثت مصيبة المصائب بعد مرور سنة واحدة على زواج أمها إذ أخذ زوجها يلحظ مالون. لم تصدق في البداية ما حدّثتها به غريزتها، إلى أن قال لها مرة: «مالون الصغيرة، لم تعودي صغيرة بعد الآن، كما أرى». واقترب منها محاولاً معانقتها ولعابه يسيل من فمه المسترخي.

وقالت له بصدق: «أشعر بالغثيان!» ثم هربت.

وفيما بعد جلست على سريرها وبكت، لأنها عرفت أنها لا تستطيع أن تخبر أمها.

تلهفت إلى مغادرة بيتها، فهو لم يعد كذلك على كل حال. ولكن المال أصبح قليلاً منذ فترة. كانت تعلم أن أباها تركهما في حالة مالية جيدة، ولكن، منذ أيام اقترحت عليها أمها أن تبحث عن عمل، فسألتها مالون عما إذا كان لديهم مشكلة مؤقتة، فأجابت أمها: «بل هي مشكلة دائمة، يا مالون».

بدت عليها التعاسة وهي تقول ذلك إلى حد لم تستطع مالون احتماله.

علمت، دون سؤال، أين ذهب المال. فقد كان أمبروز جنكنز ينفق بسخاء من المال الذي تركه أبوها لهما، ولم يبق منه سوى النزر القليل.

أما ابنه فكان كارهاً للعمل كأبيه، وبالتالي كان يستنزف باستمرار مال أمها. عند ذلك، قررت مالون أن لا تشارك في استنزاف المورد الذي بقي لأمها، فتركت المدرسة ووجدت عملاً.

لم يكن ذلك العمل مهماً، ولكن الأجر لم يكن سيئاً بالنسبة إلى سنها. رغم أنه لم يكن كافياً لدفع أجرة سكن لها لو تركت بيتها كما كانت تتمنى أن تفعل.

مرت السنتان الأخيرتان ببطء، وعندما رأت تدهور زواج أمها،

شعرت بالسرور لعدم تركها البيت. أدركت الأم حجم الخطأ الذي اقترفته بالزواج من أمبروز جنكنز، لكنها لم تكن تملك القوة للقيام بأي شيء لمواجهة انغماسه في اللهو والعبث. كانت مالون تعرف أن أمها تتألم، ولكن عجزها هي الأخرى عن القيام بأي شيء لتخفف عن أمها جعلها تبقى لمواساتها.

كانت مالون من ناحيتها، تقوم بما في وسعها لصد الأب والابن دون أن تحس أمها بشيء..

كان الأب وابنه غائبين ذات أربعاء عندما عادت مالون من العمل فوجدت أمها تبكي.

واندفعت مالون إليها هاتفة: «حبيبتي، ماذا حدث؟».

وعلمت أن أمبروز وأمها انفصلا. ولكن يبدو أنّ هذا الأمر لم يكن سبب يأس أمها، كما أوضحت لها، بل لأنها أصغت، بحماقة، إلى أمبروز الذي حدّثها عن مشروع مثير قد يضاعف ربحهما على الفور، فيصبحان من الأثرياء.

لم تكن أمها معتادة على التعامل بالمال، فأقنعها بأن تستدين، واضعة منزلها الجميل كضمانة.

بعد ثمانية عشر شهراً انتهت المغامرة بالفشل. وعندما فرغ المال، تركها أمبروز، حتى أن المنزل لم يعد ملكاً لأمها. قالت الأم باكية: «علينا أن نترك المنزل الجميل الذي اشتراه أبوك لنا!».

من الغريب أن الأم ظلّت تتمتع بالقوة رغم وصول الأمور إلى الحضيض، وتكهنت مالون بأن السبب يعود إلى العذاب الداخلي الذي كانت تعانيه قبل أن تبوح لها بما حدث. وفي الصباح التالي، وقبل أن تتمكن مالون من أن تقول إنها تنوي أن تبحث عن بيت تستأجرانه، أخبرتها أمها أنها تنوي الاتصال بشركة محاماة لترى إن كان ممكناً القيام بشيء ما بشأن المنزل.

أسرعت مالون تلك الليلة إلى البيت لتكتشف أن جون فورست، رئيس شركة المحاماة التي كان أبوها يتعامل معها يهتم شخصياً بأمها. وبعد دراسة

التفاصيل والأوراق اعتبر أن أمها تلقت من زوجها نصيحة سيئة، وأن هناك احتمال أن يكون زوجها قد وضع المال في جيبه دون أن يستغله في أي مشروع، وبإمكان أمها أن ترفع عليه دعوى.

ـ من الأفضل أن أطلّقه.

وهتفت مالون استحساناً لهذه الفكرة.

لكن الأشهر تتالت. كان أمبروز يتصرف كرجل أعزب، لكنه لم يشأ أن يطلق، كما يبدو، فأخذ يعيق الأمور. وكان جون فروست موجوداً دوماً فيبتسم لأمها ويشجعها عندما تذهب إلى مكاتبه لملاحقة الإجراءات.

انتقلت مالون وأمها إلى شقة صغيرة استهلكت أجرتها معظم راتب مالون. لكنها لم تتذمر، فقد كانت مبتهجة بالعيش في مكان بعيد عن جنكنز وابنه.

تمّ طلاق أمها يوم عيد مولد مالون العشرين، فأخذهما جون فروست بصفته صديقاً لهما، للعشاء احتفالاً بالمناسبة.

كان ضيقهما المالي شديداً للغاية، وحاولت الأم أن تعيل نفسها، لكنها لم تكن معتادة قط على العمل خارج البيت. ولم تستطع مالون احتمال ذلك. لا بد أن أباها كان ليصدم للطريقة التي تعامل بها الحياة حبيبته إيڤلين.

وقالت مالون بإصرار: «أنت لست مضطرة للعمل. يمكننا أن نتدبر أمرنا».

فنظرت إليها أمها غير واثقة: «ولكن عليّ أن أساهم بشيء، إنه ليس إنصافاً...».

ـ لكنك تساهمين، فأنت ربة منزل رائعة.

حاولت إيڤلين أن تجادل، لكن مالون رأت أنها غير مقتنعة في سرّها. وأخيراً أذعنت أمها، بعد أن استعملت مالون كل طرق الإقناع التي تعرفها. بعد ذلك، عاشتا على راتب مالون. وابتدأ كل شيء يتحسن فجأة. خرجت مالون وأمها لتناول العشاء مع الأرمل جون فروست مرات عدة، ثم بادلتاه

الدعوة إلى شقتهما الصغيرة. أدركت مالون أن جون فروست يهتم بأمها، وأعجبها فيه قدرته على حمايتها.

في المرة التالية التي دعاهما فيها إلى العشاء، وجدت مالون عذراً مناسباً لعدم الذهاب، وتركت لجون فروست أن يقنع أمها بأنه سيكون مسروراً لو رافقته من دون ابنتها.

وفي العمل أحرزت مالون تقدماً جيداً كوفئت عليه بزيادة راتبها، فأصبح بإمكانهما تجديد بعض الأثاث القديم. لم تُوْدِعا أموالاً في المصرف.. غير أن زيادة راتبها حسّنت حياتهما. ومع انتقالها إلى قسم آخر تعرفت مالون إلى شخصين هما ناتاشا والاس، وهي فتاة في مثل سنها أي في الثانية والعشرين تقريباً، وكيت مورغان الذي يكبرهما بثلاث سنوات.

وبما أن جون فروست وأمها يخرجان معاً، وكان جون يحرص على عدم استعجال إيثلين، فقد ابتدأت مالون تخرج مع ناتاشا، وكان كيت يخرج معهما أحياناً.

كانت مالون تتجنب الرجال بناءً على خبرتها السابقة بأمبروز جنكنز وابنه لي. ولم تستطع أن تتصور نفسها متورطة في علاقة مع أي رجل.

ولهذا زادت دهشتها عندما أدركت أنها، بعد أربعة أشهر من الصداقة بينها وبين ناتاشا وكيت أصبحت تشعر بنوع من المودة نحو كيت. واكتشفت أنه شعور متبادل بينهما ما زاد في دهشتها وسرورها.

وبدأت ناتاشا تكثف تدريبها على العزف على الكمان، فكان كيت ومالون يخرجان وحدهما معاً.

شعرت بالغثيان وهي تستلقي على سرير هاريس كويليان، متذكرة مشاعرهما نحو بعضهما البعض والتي أوشكت أن توصلهما إلى الالتزام الرسمي.

ذات سبت وبينما كانت ناتاشا مشغولة بموسيقاها ذهب كيت ومالون إلى السينما. وفجأة راح يتوسل إليها أن ترافقه: «أريدك، وأريد أن نبقى

معاً».

رباه، يا لها من خطوة كبيرة!

رفضت، لكنه لم ينفك أثناء الشهرين التاليين عن دعوتها للذهاب، معه. ثم أخبرها ذات يوم أنه يحبها.

وافقت، رغم أنها كانت ترتجف قليلاً: «نـ.. نعم».

لم يضيع كيت وقته، وأخبرها بأنه رتب أمر لقائهما الشاعري في العطلة الأسبوعية القادمة، وسيأتي لأخذها من بيتها صباح السبت.

لماذا لم تستطع أن تخبر أمها؟ كانت ستتفهم الأمر لأنها قابلت ناتاشا وكيت من قبل. وتساءلت مالون فيما بعد... هل كانت تعلم، في أعماقها، أن الأمر ليس صواباً؟ لكنها، حينذاك فقط، استطاعت أن تقنع نفسها بأن أمها، بعد تلك السنوات التعيسة التي عانتها، تشعر بشيء من السعادة، بعد أن أصبحت تمضي مزيداً من الوقت مع جون فروست.. لذا فهي، لا تريد أن تعطي أمها أدنى سبب للقلق عليها.

عادت مالون، يوم الجمعة إلى بيتها من العمل، وقررت أن تخبر أمها تلك الليلة، فكيت سيأتي ليأخذها صباح السبت.

لم تكن أمها موجودة لكنها تركت ورقة تقول فيها إن جون اتصل بها ويريد أن يحدثها بأمر خاص، بعد الظهر. وهي لا تظن أنها ستتأخر في العودة.

تمنت مالون ذلك. كانت متوترة، لذا أدركت أن ذلك الشعور لن يتبدّد إلا بعد أن تخبر أمها. وعندما مرّت الساعات ولم تحضر أمها، أدركت أن جون اصطحبها إلى العشاء.

ثبتت صحة كلامها فبعد أن أعاد جون أمها إلى البيت عند العاشرة مساء، هتفت الوالدة: «لدينا شيء نريد أن نخبرك به».

لم يكن عليها أن تقوله، لأن مالون تبينت البهجة في وجهيهما.

وقال جون: «سنتزوج. هل تمانعين يا مالون؟».

منذ سنوات لم تر أمها بهذه السعادة، فابتسمت: «تعلم أني موافقة».

نسيت كل شيء عن كيت مورغان عندما تقدمت وتعانقوا هم الثلاثة.

بقي جون معهما وتحدثوا دهراً قائلين لمالون إنهما يعرفان بعضهما بعضاً منذ سنوات، فلم يريا سبباً يجعلهما ينتظران. سيتزوجان الشهر القادم وستترك مالون الشقة.

ـ أترك الشقة؟

ـ أمك ستنتقل إلى بيتي يا مالون، وأمنيتي أن تنتقلي أنت أيضاً معنا.

ـ شكراً لك.

أجابته بذلك، فهي لا تريد أن تفسد عليهما فرحتهما. لكنها كانت تعلم أن مكانها ليس في بيت أمها الجديد.

ـ إذن استقر الأمر.

ابتسم جون وهو يقول ذلك ثم أخذ يتحدث عن ابنته المتزوجة في اسكوتلندا، والتي ستأتي بالطائرة غداً لحضور عشاء عائلي احتفالاً بالمناسبة.

ـ آه..!

هتفت مالون وهي ترى أنها نسيت كل شيء عن كيت مورغان.

ـ لا تقولي إنك لا تستطيعين الحضور، يا عزيزتي. هل لديك موعد يمنعك من الحضور؟

ـ كيت..

ـ أنا واثقة من أنه سيتفهّم الأمر، فهذه مناسبة عائلية.

ـ طبعاً، سأتصل به.

قالت مالون باسمة وهي تدرك أنها لم تشعر بأسف كبير لإلغاء عطلتها الأسبوعية مع كيت.

وعندما اتصلت به، لم يتفهم الأمر، بل ثار غضبه: «لقد حجزت في الفندق! لقد تزوجت أمك من قبل.. فلماذا تبدين هذا الاهتمام الآن؟».

إذا لم يستطع أن يفهم، فلن تحاول مالون أن تشرح له الأمر.

ـ آسفة. سأراك يوم الاثنين.

كان العشاء رائعاً للغاية.

يوم الاثنين، شعرت مالون بعدم الإرتياح لتخليها عن كيت، فذهبت تبحث عنه لتعتذر إليه وتحاول أن تجعله يتفهّم أهمية وجودها هناك مع أمها.

توجهت إلى مكتبه: «كيت».

ـ مالون، أنا..

قال اسمها في الوقت نفسه وبدون سبب واضح، وبدا عليه الخجل.

ـ صباح الخير يا كيت.

والتفت الاثنان إلى ناتاشا التي كانت واقفة هناك، مفعمة بحيوية لم يسبق لمالون أن رأتها فيها من قبل. منحتهما ناتاشا ابتسامة واسعة، لكنها خاطبت كيت قائلة: «أريدك أن تعلم أنني لم أتعرض لأيّ مشكلة حين دخلت شقتي الليلة الماضية».

حملقت مالون فيها، ثم ابتسمت. وماذا في ذلك؟ فناتاشا هي صديقة قديمة حميمة لهما: «هل خرجت مع كيت الليلة الماضية؟».

سألتها وهي تشعر بالضيق، لكنها سُرّت لأن كيت لم يمض عطلة كئيبة تماماً. وفجأة، أنبأتها غريزتها إلى أمر ما جعلها ترتجف. كانت تعلم أنها تشعر بالضيق، ولكن لم يشعر بذلك هو أيضاً؟ وسألتها ببطء: «سبق وخرجت مع كيت من قبل، ما الفرق بين تلك المرة والليلة الماضية؟».

فأجابت ناتاشا: «لم أعد إلى البيت ليلة السبت».

جمدت مالون وجهدت ليبدو صوتها مرحاً وهي تقول: «لقد اختلف الأمر الآن. هل استمتعت مع كيت؟».

تألقت عينا ناتاشا: «كان الأمر رائعاً، أليس كذلك يا كيت؟».

فلم يجب.

بقي سؤال واحد لم تتصور مالون، في الأحوال العادية، أن تلقيه، فسألتها بصوت خافت: «هل بقيتما معاً؟».

بدا التردد على ناتاشا، ولكن صداقتهما القديمة جعلتها تجيب بصدق وشيء من البرودة: «نعم، لهذا خرجنا معاً».

نظرت مالون إلى كيت، لم تحاول الإنكار، بل قال: «من الأفضل أن نباشر عملنا».

تركتهما وجلست إلى مكتبها. لم تستمع إلى توسلاته وهو يشرح لها أنه كان غاضباً منها لأنها خذلته وأنها هي، مالون، التي يحب.

أدركت، حينذاك، أنها على مفترق طرق في حياتها. لم تعد تريد أن تعمل مع كيت وناتاشا. شعرت باستحالة السكن مع أمها وجون فروست حين يتزوجان، لكنها كانت تعلم بأنها إذا أصرت على البقاء وحدها في الشقة، ستتكدر أمها، وهي التي عانت ما فيه الكفاية.

وأخيراً قررت أن ما تريده هو بداية جديدة، عمل جديد، و..

وفجأة، جاءها الحل. العذر الوحيد الذي يمكن أن يجعل أمها تقبل بعدم انتقالها للسكن في بيتها الجديد مع جون هو انتقالها للعمل في وظيفة جديدة في منطقة أخرى.

أرادت أن تشتري لأمها ثوباً جميلاً ترتديه عند الزواج. ماذا لو وجدت عملاً مع مسكن؟ سيكون بإمكانها، حينذاك، أن تنفق كل أجرها على ثوب جميل لأمها وتأمين مسكن بما بقي لديها من نقود يكفيها حتى يحين موعد أجرها.

ووقع اختيارها على إعلان يطلب مدبرة منزل تجيد الأعمال الادارية، ففضلتها على وظيفة عاملة استقبال في فندق لعدم خبرتها بذلك.. أتراها أخطأت؟ كانت تشعر بأن كيت خذلها بتصرفه، وإذا بها تتعرف إلى ذلك الحيوان رولاند فيليبس ما جعلها تمقت الرجال.

سارت إلى النافذة لتنظر منها إلى الخارج. لقد توقف المطر والحمد لله. إذا استمر الصحو ربما يتمكن العمال من القدوم لإصلاح السطح.. وجدت نفسها تفكر فجأة في أن هاريس كويليان شهم، بل أكثر من شهم.

لو أنه أوصلها إلى بيت أمها الجديد، لتملك الرعب أمها.

يجب أن تشكره، خصوصاً على ذلك المبلغ الكبير الذي أعطاها إياه، ذلك الراتب، كما دعاه. إنه واثق من أنها لن تهرب عند أول فرصة، وهذا يعني، من وجهة نظره، أنه يثق بأنها لن تهرب بما يتيسر لها أخذه. التفتت لتنظر إلى الغرفة العارية وابتسمت.. فلا يوجد هنا ما يستحق السرقة.

قررت أن تفحص جهاز تسخين الماء، فاكتشفت أنه يعمل، وأمضت وقتاً ممتعاً تحت الدوش. هاريس كويليان يظن أنّ وجهها رائع الجمال وجسمها بديع. ووجدت نفسها تفكر في ذلك.. وفجأة خرجت من تحت الدوش.. وماذا يهمها من أمره؟

ملاحظاته لا تحمل صفة شخصية، ونبذت تعليقاته تلك من ذهنها.. إنها واثقة من أن لديه موعداً هاماً الليلة الماضية مع امرأة محنكة منمقة، وهو لا يهتم مثقال ذرة بواحدة تدعى مالون بريتويت. لقد صرّح بوضوح أنه يريد هذا البيت لقضاء عطلاته الأسبوعية، وناسبها الأمر تماماً.

تنهدت من دون أن تبتسم.

كانت قد أقفلت الباب الأمامي والأبواب الخلفية وأخذت تتفحص محتوى الثلاجة، شعرت بالسرور وهي ترى أن فاي ملأت ثلاجة شقيقها بمشتقات اللبن التي تدوم شهوراً. تبينت وصول العمال، فسرعان ما سمعت قرعاً على باب المطبخ: «الآنسة بريتويت؟ شركتي هي التي تقوم بالإصلاح هنا، أنا بوب ميلر. لقد حضر إلينا السيد كويليان أمس».

انسجمت مع المدعو بوب ميلر، وهو رجل يناهز الخمسين من عمره. لم يسألها من تكون أو لماذا هي هنا.

ـ حسناً، هل من الممكن أن أدخل وأرى السقف الذي انهار أمس؟

ـ طبعاً.

وتذكرت ما قاله هاريس أمس عن تموين جيش العمال بالقهوة والشاي، فقالت له: «هل أعد لك كوب شاي؟».

منحها بوب ابتسامة عريضة: «هذه هي الطريقة المناسبة لنبدأ الأسبوع».

كان أسبوعاً حافلاً بالعمل، حتى أنها لم تجد صعوبة في ملء ساعات اليوم بالعمل. خلال هذا الأسبوع، تعرفت إلى النجار الذي وضع قفلين في بابي غرفتي النوم وأصلح النوافذ في غرف النوم. كما تعرفت إلى شارلي ودين وباز ورون، وهم سباكون ممتازون، وكين الذي يحب العمل في الهواء الطلق. وتعرفت أيضاً إلى ديل الذي يتحلى بصوت جميل، وكان يغني معظم النهار. وأخيراً كيڤين الذي أوصلها بالڤان عندما ذهب ليجلب بعض الأغراض، من المدينة.

قال لها ببشاشة وهو ينزلها أمام السوبر ماركت: «تأخري قدر ما تشائين، فأنا سأغيب دهراً».

اشترت مالون فاكهة طازجة وخضاراً وأطعمة احتياطية وجريدة أيضاً بالإضافة إلى أدوات مكتبية وطوابع بريد. وعندما عادت، أخذت تتفحص إعلانات العمل في الصحيفة، ولكن لم يجذبها شيء منها. على أيّ حال، لم يكن هناك داعٍ للعجلة لأن هاريس قال إن العمال سيبقون ثلاثة أشهر، فلم تشأ أن تندفع بقبول أول عمل تراه.

عدا عن السرير الذي وعدها هاريس به، وصلت معه عدة قطع من الأثاث. وضعت مالون كرسيين في الصالون الذي كان عارياً كغرف النوم، من الستائر أو السجاد. أما خزانة الثياب والمكتب والكراسي الأخرى فنقلوها إلى غرفة نومها. وبما أنها تجلس، عادة، في المطبخ، وضعت كرسياً مريحاً آخر فيه.

وجدت أنها تفكر في أمها وزوجها جون فروست، وفي هاريس كويليان أيضاً، محاولة أن لا تفكر في أمثال كيت مورغان ورولاند فيليبس.

ورغم تعليقه على احتمال إصابتها بالإلتهاب الرئوي، لم تعطس مرة واحدة. وبسبب الأحلام المرعبة التي تراودها، كانت تضطر عدة مرات أثناء

الليل إلى النزول من سريرها لتلوذ بالمطبخ الآمن. عموماً، لم تشعر يوماً بأن صحتها أفضل مما هي عليه الآن.

هل كان هاريس ينوي أن يأخذها حقاً إلى مخفر الشرطة لكي تتقدم بشكوى ضد صهره؟ لكن الشك تملكها في إمكانية ذلك ما دامت أخته ترجو أن تعود إلى زوجها بعد أن تنتهي فترة انفصالهما الاختياري.

قال هاريس إنه قد يأتي يوم الجمعة، لذا حزمت مالون صباح الجمعة حقيبتها استعداداً لقضاء عطلة الأسبوع بعيداً، ثم ذهبت تبحث عن كيڤين الذي غالباً ما يذهب إلى دكان القرية الذي يبعد ميلين. وسألته: «هل يمكنك أن توصلني معك إلى شروين في المرة التالية التي تذهب فيها إليها؟».

ـ بكل سرور.

أجابها ببشاشته المعتادة، وبعد عشرين دقيقة جاء إلى المطبخ يبحث عنها.

اشترت من القرية أشياء مختلفة. وعندما حلّ ذلك المساء وضعت الأزهار في آنية فوق مدفأة الصالون وعدة بسط في أنحائه فأصبح الصالون مكاناً مريحاً.

لكن هاريس كويليان لم يحضر. وذهبت مالون إلى سريرها في تلك الليلة، واعية لشعورها الغريب بخيبة الأمل. وسرعان ما أخذت هذه الفكرة من رأسها، لكن نومها كان متقطعاً.

سرّها أن تغادر سريرها صباح السبت. فاغتسلت وارتدت بنطلون جينز وقميصاً، ثم نزلت إلى الطابق الأسفل لتبدأ بالعمل.

كان أحد الرجال قد أحضر لها كيساً يحوي خوخاً. وعند انتصاف النهار صنعت فطيرتي خوخ، وكانت تفكر في تحضير الكعك، مدركة أنه سينفد في ثوانٍ، عندما نظرت من نافذة المطبخ ورأت سيارة يقودها هاريس.

لم تتوقع رؤيته قبل يوم الجمعة التالية، وابتسمت فجأة. لقد أدركت أنها مسرورة برؤيته.

***

٣ ـ شيء في عينيه

سمعت مالون وقع خطوات هاريس في الردهة، وشعرت فجأة بالخجل عندما دخل المطبخ، بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين.

انعقد لسانها، أما هو فلم يتكلم على الفور، بل وقف عند العتبة ينظر إليها، وكأنه يراها لأول مرة. عندئذ، لاحظت أن عينيه مستقرتان على شعرها الأشقر ثم نظر إلى قميصها المقفل وبنطلونها الذي يغطي ساقيها الطويلتين. وأدركت أنها المرة الأولى التي يرى فيها شعرها غير مبلل أو ملفوف بمنشفة.

قالت بسرعة، شاعرة فجأة بالخجل: «لقد هذبت مظهري وأصلحته جيداً».

كانت المرة الأولى التي يراها فيها بملابس جافة أنيقة.

أجفلت حالما أفلتت هذه الكلمات من فمها، خشية أن تستدعي تعليقاً شخصياً منه. ابتسم فأدركت أنه عرف أنها تتمنى لو بقيت صامتة.

تبدد شعورها بالتوتر بسرعة عندما قال لها: «كنت صاعداً بحقائبي إلى غرفتي، لكنني لم أستطع مقاومة رائحة الفطائر العابقة في البيت».

شعرت بالخجل مرة أخرى. ما الذي يمنعها من أن تتمالك نفسها؟ ووجدت نفسها تجيب: «أحضر لي ديل كيس خوخ. هنالك بعض الدلاء على فسحة السلم تحسباً لتسرب المياه».

لم تستطع أن تتوقف عن الكلام: «أصلح جزءٌ من السقف، ولكن هناك

بعض التسربات الجديدة، والعامل المسؤول عن ذلك لا يمكنه الحضور قبل يوم الاثنين، هل تريد قهوة؟».

خشيت أن يحرجه هذا التغيير المفاجىء في لهجة حديثها المائل إلى الحدة.

لكنه أجاب: «أود فنجاناً. سآخذ حقيبتي إلى غرفتي، ومن بعدها تزودينني بكل ما أحتاج معرفته».

سرّها أن يذهب لأنه منحها فرصة لتتمالك نفسها. رباه، ماذا حدث لها؟ لم يسبق لها أن شعرت بالخجل أو بعقدة اللسان في وجود رجل. هل انعقد لسانها؟ كما أن الثرثرة التي لم تتوقف هي مسألة أعصاب على الأرجح؟ من المؤكد أن تجربتها مع رولاند فيليبس لم تحطم ثقتها بنفسها إلى هذا الحد! إنها تتمنى ألاّ يكون ذلك قد حصل رغم اعترافها بمعاناتها السابقة مع رجال كزوج أمها السابق وابنه، وصديقها الخائن كيت مورغان. كانت لا تزال تضمد جراحها عندما حصل ما حصل من صهر هاريس.

عندما عاد هاريس إلى المطبخ، كانت القهوة جاهزة، وبدأت مالون تظن أنها عادت متماسكة عندما قال: «لقد وصل السرير».

فسألته على الفور بلهجة عدائية: «وهل كنت في غرفتي؟».

تلاشت العفوية من صوته: «أليس مسموحاً لي أن أتحقق من تنفيذ تعليماتي بشأن النوافذ والأبواب؟».

ردّ بشيء من الخشونة، فنظرت إليه ثم إلى قهوتها. ما الذي جرى لها؟ هذا بيته ويمكنه أن يفعل فيه ما يريد. ساد الصمت بينهما.

ثم تبددت الخشونة من صوته وسألها برفق: «هل أنت مستاءة؟».

نظرت إليه تعتذر، محاولة أن تفسر سلوكها: «آسفة، أبدو حساسة أكثر مما يجب. أنا فقط.. أحب عزلتي».

لم تشأ أن تزيد فتشرح له ما حدث لها منذ سنوات، حين كان عليها أن تضع كرسياً تحت مقبض الباب كي تمنع دخول المتطفلين.

لم تشكره: «هل لي أن أسأل ما معنى هذا؟».

لم تؤثر عليه رغبتها في المشاكسة: «أنت رحّبت بي برائحة الطهي... وإذا بك تعاملينني بحدة لئلا أكوّن فكرة خاطئة عنك».

رأت أن لا شيء يفوته، لكنها لم تهتم لذلك بل ردّت عليه بحدة: «لم يكن الطعام من أجلك بالذات، حتى ولو أسعدني تقديمه لك».

وشعرت فجأة بأنها لم تعد تستطيع أن تتحمّل، فتابعت تقول: «لديّ حقيبة جاهزة، سأذهب».

فسألها بدهشة وقد تصلبت ملامحه: «إلى أين؟ لا أعتقدك ترحلين فقط لأن...».

ـ أنا لست راحلة، بل ذاهبة لأبيت هذه الليلة في فندق.. هل نسيت؟

ـ لا، لم أنسَ. لكنني ظننت فقط، نظراً لبدايتنا الفاشلة، أنك لن تعودي.

ولانت لهجته مرة أخرى: «أهلاً بك إذا شئت أن تبقي..».

فقاطعته بخشونة: «لا أريد ذلك!».

فرد عليها بحدة: «سامحيني لأنني ذكرت ذلك. سامحيني لشعوري بالذنب إلى حد جعلني أبدو وكأنني أريدك أن ترحلي».

لم تشأ مالون أن تعتذر، لم تشأ أن تكون هي المخطئة دوماً.. ودون أن تنظر إليه، وتعباً بقهوتها، خرجت من المطبخ وصعدت إلى غرفتها.

بعد ثوانٍ فقط، نزلت إلى الطابق الأسفل حاملة حقيبتها. وعندما وصلت إلى الردهة، كان هاريس قد خرج من المطبخ ووقف هناك حاملاً مفاتيح السيارة. عندما أدركته، مدّ يده ليحمل عنها حقيبتها، لكنها قالت وهي تتمسّك بالحقيبة: «سأطلب من كيڤين أن يوصلني إلى المدينة».

فأجاب بهدوء: «سآخذك أنا».

وقبل أن تبدأ الجدال، أخذ منها حقيبتها وأجلسها في سيارته ثم انطلقا من المنزل. ولكن، لماذا كانت تجادله؟ وجدت مالون نفسها تتساءل

بصمت. إنها لم ترَ منه غير الشهامة والتهذيب. وتملكها فجأة شعور بالسوء، فقالت له من دون تفكير: «آسفة».

وعندما حوّل عينيه لحظة عن الطريق لينظر إليها، تابعت تقول: «لا أدري لماذا أنا..».

وفتشت عن كلمة فلم تجد أفضل من كلمة قالها لها وبدت لها مناسبة الآن: «... فظة بهذا الشكل».

ـ أنا أعرف.

أدهشها جوابه الرقيق وقد حوّل نظراته إلى الطريق. وحدقت إلى جانب وجهه: «أنت؟».

ـ ما زلت تعانين من الأذى الذي لحق بك الأحد الماضي؟

فكرت مالون في ذلك، فما عانته من رعب وفزع وهي تركض تحت سيل المطر المنهمر، كان وحده كافياً بغض النظر عما حدث من قبل. أمضت طوال الأسبوع في استعادة الصورة المروّعة لوجه فيليبس الشهواني وهو يحاول أن يمزق ملابسها. عندئذ، خطر في بالها، أن لا أحد يمكنه أن يشفى على الفور من شيء كهذا. فقالت متنازلة: «قد تكون على حق. أرهقتني الذكريات وراودتني الكوابيس».

ـ ألم تنامي جيداً؟

فأجابت بمرح: «يختلف الأمر عندما أنهض باكراً لأذهب إلى العمل».

قال ببطء: «حسب بوب ميلر الذي اتصلت به الخميس، أنت دوماً مستيقظة وتعدّين إبريق الشاي أو القهوة عندما يصل عند الساعة الثامنة إلا ربعاً».

ـ لم أكن أعلم أن لديك جواسيس هنا!

ـ هل عدت إلى الفظاظة مرة أخرى؟

لكنها لم تجد في لهجته أي انزعاج بل مجرد دعابة. وأحبت تصرّفه،

فقالت باسمة: «لن أقول آسفة مرة أخرى».

لكنها تابعت بجد: «بالرغم من شهامتك ولطفك، أنت...».

ـ هيه.. سوف تمنحينني هالة قديس الآن!

ـ أشك في قداستك... إنها شهامة منك أن تتوقف الأحد الماضي كما فعلت.

ـ يهمّنا أن نرى إمكانية علاج لتلك الذكريات والأحلام. أتحبين أن تري طبيباً نفسياً؟ يمكنني أن أرتب لك..

ـ رباه، هذا ليس ضرورياً! لو عرفت أنك ستهتم بالأمر جدياً لما أخبرتك.

ـ الأمر جاد، يا مالون. فأنت متوترة معي أغلب الأحيان. لا أريد أن يتأصل فيك الخوف من الرجال بسبب صهري..

فهتفت بضيق: «أنا لست خائفة من الرجال! أتحدث إلى العمال طوال النهار!».

وعندما لم يقاطعها هاريس، وجدت نفسها تقول بغضب: «قد أكون حذرة أحياناً، وعلى شيء من الاحتراس، ولكن ليس بسبب فيليبس وحده..».

وسكتت فجأة، كارهة هاريس لأنه أغضبها إلى حد جعلها لا تنتبه إلى ما تقول.

وزادت كراهيتها له عندما نظر إليها وسألها بخشونة: «هل حدث لك تجربة مماثلة؟ سيضاعف ذلك من شناعة تصرف فيليبس».

فأجابت بحدة: «لا أريد أن أتحدث عن ذلك، كما أنه لم يكن بنفس السوء. انتبه إلى الطريق».

وعندما رأت أنهما أصبحا في الشارع الرئيسي، قالت: «يمكنك أن تنزلني هنا وأنا سوف...».

تجاهلها.. فأرادت أن تضربه بقبضة يدها. لم تعرف قط مثل هذا

الرجل. كانت تريد أن تبحث عن نزل مناسب يقدم سريراً وإفطاراً، في حين أنه يريد أن يأخذها إلى أجمل فندق في المدينة!

عندما أوقف سيارته في موقف فندق كليفتون، صممت أن لا تدخل إليه. نظرت إليه بعناد، فبادلها النظر وقال: «لا تصعّبي الأمور، يا مالون».

أحست بشيء من الضجر في لهجته.. فشعرت بالذعر. لا شك أنه يجهد نفسه في العمل ويمضي ساعات طويلة ليحقق النجاح الذي يتمتع به. ربما ترك لندن ليأتي إلى «هاركورت هاوس»، آملاً في أن يجد الراحة والاسترخاء عدة ساعات قبل أن يعود للكفاح في عالمه.

ـ أنا..

فتحت فمها لتقول إنها آسفة ثم ترددت غير واثقة من السبب الذي يجعلها تعتذر. وبدلاً من ذلك قالت: «يبدو الفندق مترفاً بعض الشيء. هل تظن أن بنطلون الجينز والقميص القطني سيتناسبان معه؟».

وفجأة ابتسمت العينان الرماديتان الودودتان لعينيها الواسعتين، وقال مداعباً: «أنت متكبرة، يا مالون بريتويت».

ـ لا، لست كذلك. كل ما في الأمر أن تربيتي سليمة.

أخذت ابتسامته تتسع، فخفق قلبها بشكل غير متوقع. حوّلت نظراتها بعيداً، وأمسكت بمقبض الباب. وفي الوقت الذي أحضر هاريس حقيبتها ودار حول السيارة ليفتح لها الباب، خرجت منها.

بدا واضحاً أنه كان يستعمل فندق كليفتون قبل شراء «هاركورت هاوس»، ولاحقاً في اجتماعاته مع المهندسين والمصممين، لأن الموظفين راحوا يبادلونه التحية بالاسم وبدا وكأنه لا يعاني من أيّ صعوبات.

وفي غمضة عين، وجدت أن غرفة حجزت لها في هذا الفندق المزدحم فيما وقف هاريس ينظر إليها وهو يقول: «سأحضر غداً لآخذك».

وشعرت بالذنب لتحميله هذا العبء، فقالت بإصرار: «بل

سأستقل سيارة أجرة».

ـ أتطعنين في قيادتي؟

ابتسمت ثم ضحكت: «لا أجرؤ على ذلك».

وشعرت بالأمان، وبقي هذا الشعور حتى عندما استقرت عيناه على فمها.

بعد ذهابه تملك مالون شعور غريب، ليس شعور بالحرمان بالضبط. لم تستطع أن تحدّد هذا الشعور، لكنها افتقدته.

في غرفتها في الفندق، نبذت من ذهنها هذا الهراء. كانت تشعر بالوحدة لا أكثر، فهي لا تعرف أحداً هنا. ثم.. حسناً، لقد تغيرت حياتها مؤخراً وعملها، وانفصلت عن صديقها وعن أمها.

وإذ تذكرت أمها، رفعت سماعة الهاتف. منذ عشرة أيام، اتصلت بها أمها إلى «آلورا لودج» لذا من الأفضل أن تتصل بها.

جاء اتصالها في الوقت المناسب لأن أمها قالت لها: «كنت على وشك أن أتصل بك!».

هتفت السيدة فروست، كما أصبح اسمها، وقد بدت السعادة في صوتها والسرور بسماع صوت ابنتها.

سألتها مالون: «هل تسير الأمور على ما يرام؟».

ـ بل على أحسن ما يكون، وجون رقيق للغاية. لقد نسيت تماماً كيف يتصرف الرجل المهذب الحقيقي.

قالت إيفلين فروست هذا فكادت مشاعر مالون تخنقها. لا بد أن تلك السنوات المخيفة التي أمضتها أمها مع أمبروز جنكنز كانت فظيعة. سألتها أمها: «كيف الحال معك؟ هل رأيت مخدومك كثيراً هذا الأسبوع؟».

أدركت مالون أنها تعني رولاند فيليبس لأنها أخبرتها في آخر اتصال بينهما أنها نادراً ما تراه.

لم تستطع مالون أن تفسد على أمها سعادتها الجديدة، فأجابت: «لم أره

منذ الأحد الماضي».

ستتألّم إذا علمت بما حدث لابنتها مع رولاند فيليبس، وربما ستلحّ عليها للعيش معها ومع جون لو أخبرتها أنها تعمل لدى رجل آخر.

تحدثت مالون طويلاً إلى أمها، ثم وضعت السماعة أخيراً وقد زاد اقتناعها بأن أمها أصابت في الزواج من جون فروست الذي لا يقارن بأمبروز جينكنز.

أدركت أن أجرة هذا الفندق ستحدث شرخاً كبيراً في ميزانيتها، فاختارت أن تخرج وتشتري شطيرة لغدائها.

عادت إلى غرفتها في الفندق قبل العشاء، ففكرت في الخروج وتناول طعام خفيف في مكان ما. ثم وجدت نفسها تتساءل عن المكان الذي يتناول هاريس فيه طعامه. تمنت أن يأكل من فطيرة الخوخ.. ثم أدركت أنها تفكر فيه بشيء من العطف.

رباه، هي لا تكاد تعرف الرجل! صحيح أنه بدا لها أكثر من شهم، لكنه، على كل حال، لن يموت جوعاً. إذا لم يود أن يعدّ عشاءه بنفسه فيمكنه دوماً أن يقود إلى المدينة ليتناول العشاء.

ربما سيأتي إلى فندق كليفتون ليتناول العشاء. جعلتها الفكرة تقرر الخروج، فربما لديه صديقة هنا، إنه رجل حر غير ملتزم عاطفياً.

وفجأة، أخذت تشعر بالاضطراب. عليها أن تنساه كما أن قاعة الطعام واسعة تتسع لهما معاً. أفرغت حقيبتها ثم سارت إلى الخزانة وأخرجت بنطلوناً أنيقاً وبلوزة.

عندما نزلت، كانت غرفة الطعام مزدحمة بالزبائن، ورأت مجموعة كبيرة تحتفل بشيء ما، كما يبدو. لكن هاريس لم يكن موجوداً.

شرعت مالون بتناول الوجبة التي طلبتها، وعندما أخذت تتناول الحلوى، أدركت أن الحفلة كانت احتفالاً باليوبيل الذهبي لزوجين. لم تكن تنظر باتجاههم بشكل خاص، ولكن لم يفتها رؤية باقات الأزهار الضخمة

التي تحفل بها المائدة، أو رؤية الزوجين المرحين اللذين لم يبدُ عليهما أنهما كبرا في السن.

تناولت قهوتها في قاعة الجلوس وقد خفّ اضطرابها. وجدت، وهي ترشف قهوتها، أنها تفكر في هاريس كويليان. ومرة أخرى، وجدت نفسها تتساءل إن كان لديه صديقة في هذه المنطقة ليشتري أملاك «أبرماسي». ولكنها بعد التفكير ملياً، استبعدت الأمر. إذا كان راضياً تماماً عن حياة العزوبة، فمن غير المحتمل أن يتخذ صديقة دائمة.

ـ هل هذا المقعد مشغول؟

رفعت بصرها فرأت رجلاً وسيماً في حوالى الخامسة والعشرين، فقالت له باسمة: «لا بأس، خذه».

ثم اكتشفت أنه غير متعجل للذهاب إلى أن ذكّره شخص ما بواجبه.

وبعد دقائق، وفيما كانت مالون تهم بالعودة إلى غرفتها عاد الرجل فظنت أنه جاء ليأخذ كرسياً آخر. لكنه، بدلاً من ذلك، أحضره إلى جانبها: «هل لديك مانع في أن أجلس عدة دقائق؟ تولي لا، فأذهب».

بدا لطيفاً، فسألته: «ألا يتوقع أصحابك عودتك؟».

ـ إنه اليوبيل الذهبي لزواج جدّي. كل الأسرة منغمسة في الذكريات. لكنني لست كبيراً إلى حد يكفي لمشاركتهم بذلك.

أعجبت مالون بتوني ويلسن. كان شاباً مرحاً سهل المعشر فلم تجد سبباً يمنعها من أن تصارحه عندما سألها إن كانت تمضي إجازة في المنطقة، فأخبرته بأنها هنا لليلة واحدة.

ـ ما هو العمل الذي تقومين به؟

ـ حالياً أقوم بعمل مؤقت (كمشرفة) في منزل. أراقب عمّال البناء وما شابه ذلك.

ـ هل أصحاب البيت متغيبون معظم الوقت؟

ـ جاء صاحب البيت هذا الصباح.

ـ ومنحك إجازة الأسبوع؟

فكرت مالون في أن الوقت حان لتذهب فقالت:

ـ بعض أفراد أسرتك ينظرون في اتجاهنا، أظنهم يريدونك.

نظر توني إلى الخلف ولوّح بيده، ثم التفت إليها يدعوها: «تعالي معي. تعالي والتحقي بالحفلة».

ـ لا يمكن.

ـ سيرحبون بأن تجلسي معهم.

هزت رأسها وأوشكت أن تقول إنها تود قراءة كتاب جيد، ثم أدركت أن ذلك يدل على قلة تهذيب.

ـ لا، ولكن شكراً.

لم يكن الكتاب بمستوى التعريف به. ولكنها شعرت فجأة بالاضطراب مرة أخرى. حاولت الاستغراق في قراءته دون نجاح، فوضعته جانباً ثم دخلت الحمام لتستلقي في الحوض فترة طويلة بينما أخذ عقلها يجول حتى انتبهت فجأة إلى أنها تفكر في هاريس كويليان.

صحيح أنه كان شهماً معها.. بل أكثر من شهم، وسخياً أيضاً وهو يلح عليها بقبول أجرها مقدماً، ولكن عندما تذكرت أنه كان أحياناً بالغ الحدة معها، قررت أنه لا يستحق كل هذا الاهتمام منها.

في تلك الليلة غزا نومها المزيد من الكوابيس، وعندما استيقظت، سرّها أن تغادر سريرها. اغتسلت وارتدت ثيابها، فرأت من حالة الجوّ أنه لن يكون مشرقاً كالأمس.

ابتدأ المطر ينهمر بينما كانت في صالة الطعام تتناول إفطارها. إذا استمر المطر، فسيكون عليها غداً أن تمضي معظم الوقت في إفراغ الدلاء.

ابتسمت للفكرة، وأدركت بحماقة، أنها رغم رفاهية الفندق، مستعدة للعودة إلى «هاركورت هاوس» مع أن المنزل ما زال بعيداً عن الاكتمال، إلا أنها تتطلع بشوق للعودة إليه. انتبهت إلى نفسها، عليها ألاّ تتعلق بالمكان،

لأنها ستغادره بعد نحو ثلاثة أشهر.

عندما غادرت غرفة الطعام كانت تفكر في تأثير ذلك المنزل عليها. فالمكان غارق في الفوضى، وإذا قطع الفنيون الكهرباء، فسيقطع السباكون الماء كذلك. ومع أن الطرق لم يكن يتوقف طوال الوقت، ورغم حاجتها إلى الهدوء والسكينة، إلا أن مالون أقرت أنها تشعر بالهدوء والسلام في منزل هاريس كويليان.

سارت إلى غرفتها وجمعت حاجياتها القليلة ولكنها لم تكن واثقة متى سيصل هاريس ليأخذها. تركت حقيبتها في غرفتها ثم نزلت إلى مكتب الاستقبال لتدفع أجرة الليلة.

وعندما طلبت الحساب قالت لها الموظفة: «الحساب مدفوع».

ـ مدفوع؟ لا بد أن هناك خطأ ما.. أنا لم..

ـ ترك السيد كويليان خبراً بأن نرسل إليه الفاتورة، وأنا لا أجرؤ على تسليمك إياها.

أوشكت مالون على الاعتراض، عندما ظهر توني ويلسن أمامها، فالتفتت الموظفة إليه.

ـ كنت أرجو أن أراك هذا الصباح.

تكلّم بصراحة، ثم أضاف: «استعجلت في الصعود إلى غرفتك الليلة الماضية فلم تسنح لي فرصة طلب موعد منك للخروج ذات ليلة. يمكننا أن نتعشى معاً في مكان ما».

ـ آسفة، يا توني.

أوقفته عند حده على الفور، بنفس لطفه ورقته. سيمضي وقت طويل قبل أن تفكر في الخروج مع رجل مرة أخرى، ولكن لطفه وصراحته حملاها على أن تقول له بصدق: «أنهيت علاقتي مع صديق من وقت قريب، وما زلت غير مستعدة لعلاقة جديدة بعد».

ـ أنا آسف.

ولكنه لم يكن مستعداً للتخلي عنها: «ربما إذا أعطيتني رقم هاتفك، يمكننا أن نتحدث هاتفياً فنتصادق مع بعضنا قليلاً. يمكنك، بهذا، أن تعرفيني...».

فقاطعته بحزم مقنع: «لا».

لكنه لم يذعن: «هل ستكونين في هذا الفندق في العطلة القادمة؟».

وضحكت مالون.

وفي هذه اللحظة، شعرت بأنهما لم يكونا وحدهما، فالتفتت لترى عينين رماديتين حادتين تخترقان أعماقها، فهتفت بدهشة: «هاريس؟».

لم تره أو تسمع صوته وهو يقترب كما لم تكن تتوقع حضوره إلى الفندق بهذه السرعة.

لاحظت أنه لم يكن متحمساً تماماً لوجوده هناك. لم يتحرك توني كما أن هاريس لم يقل شيئاً وهو ينظر إليه. وأدركت هي أن الخيار خيارها، فقالت: «توني، هذا رئيسي في العمل هاريس كويليان. وهذا توني ويلسن».

تنحّت جانباً بينما حيا الواحد منهما الآخر بتهذيب.

قال هاريس بخشونة: «إذا كنت جاهزة؟».

ومرة أخرى، شعرت بدافع إلى ضربه. لكنها قالت بأدب: «سأصعد لأحضر حقيبتي».

ثم سارت نحو المصعد برفقة توني ويلسن.

عاد يسألها وهما بانتظار المصعد: «هل أنت واثقة بشأن رقم الهاتف؟».

فأجابت: «نعم».

والتفتت إلى حيث كان هاريس ينظر إليهما من دون أن يبتسم. وبعكسه، أدركت أنها لن ترى توني ويلسن مرة أخرى بعد الآن فمنحته أجمل ابتسامة. لكنها في المصعد لم تكن تبتسم. قد يكون هاريس مستعجلاً في الذهاب إلى لندن، ولكن لم يكن ذنبها أنه مضطر للحضور ليأخذها. كان

ليسرّها أكثر لو عادت في سيارة أجرة. وقد قالت له رأيها، فالذنب إذن ذنبه هو.

بعد أن استقرت على هذا الرأي، أحضرت حقيبتها والكيس البلاستيك الذي يحوي مشترياتها ومن ثم هبطت بالمصعد. تضايقت حين لم تره واقفاً ينتظرها بفروغ صبر، بل كان يتحدث مع موظفة الاستقبال التي بدت مشدوهة به.

قاطعتهما مالون ببشاشة: «أنا جاهزة عندما تريد».

استدار إليها ونظر إلى كيس مشترياتها. ومع أنه حيا الموظفة مودعاً وهو يأخذ الحقيبة من مالون، فقد بدا عليه أنه ودع أيضاً ظرفه. قررت عدم الاهتمام، وخرجت من الفندق.

توقعت أن يمضيا رحلتهما بصمت إلى البيت، وإذا به يسألها بلهجة غير ودودة: «من هو ذلك الرجل؟».

ـ من؟

كانت تعلم جيداً من المقصود ولكن، بما أنه مستعجل ليعود إلى لندن، فلم تكن مستعجلة لمساعدته أيضاً.

ـ ويلسن!

ـ إنه نزيل في الفندق.

ـ هل تعرفت عليه أمس؟

وقررت ألاّ تجيب. لِمَ كل هذه الأسئلة؟ ولكنها بعد التفكير ملياً رأت أن لديه غرضاً من ذلك: «هذا صحيح».

ـ هل تعشيت معه؟

ـ لا.

ـ لكنكما تواعدتما على اللقاء مرة أخرى.

فقالت بحدة: «لا. هذا لم يحصل!».

ـ أين يعيش؟

ـ في الجوار.

ـ هل أخبرته أين تعيشين؟

ـ وهل من المحتمل أن أفعل؟

ردت عليه بحدة وحرارة. لقد نالت ما يكفي من الأسئلة. ولكن، ربما لا يريد هاريس أن يعطي عنوانه لأحد على الإطلاق. وربما هو يحب عزلته كما تحبها كذلك.

ظنت أن جوابها كاف، وأن هاريس انتهى من الموضوع. لكنها تبينت أنها مخطئة عندما صاح مزمجراً: «وهل أعطيته رقم هاتفك؟».

شعرت بسرور بالغ وهي تجيبه بغطرسة: «ربما غاب عن ذهنك أننا لا نملك واحداً».

ظنت أن لهجتها المتغطرسة ضايقته، ولكنها اكتشفت الآن خطأها. في الواقع، فقد صوته خشونته وهو يسألها: «أليس لديك هاتف خلوي؟».

فأجابت وهي تتمنى لو تنتهي الرحلة ويعود إلى لندن: «لا».

مضت دقيقتان كان ينظر فيها إلى كيس المشتريات: «أرى أنك كنت تتسوّقين. لم أفكر في ذلك قط، عليّ أن أعطيك نقوداً لنفقات البيت».

يا لهذا الرجل! سألته مشاكسة: «هل تتعمد استفزازي؟».

فالتفت إليها بحيرة صادقة: «وماذا فعلت؟».

ـ يكفي أنك دفعت فاتورة الفندق اليوم، إلى جانب كل تلك النقود التي أعطيتني إياها الأسبوع الماضي.

فقال بلطف: «يا مالون المتكبرة! هل ستسامحينني لأنني جرحت إحساسك؟».

همد غضبها في لحظة. وشعرت برغبة في الضحك، فحوّلت وجهها إلى النافذة كيلا يرى ابتسامتها. كانت الضحكة تختنق في صدرها. وأخيراً التفتت إليه تسأله: «لماذا أشعر برغبة في الضحك؟».

عاد ينظر إليها، وبعد لحظة قال: «لأنك، في الأساس لديك طبيعة

مشرقة. لكن الحياة مؤخراً، لم تسعدك. وقد بدأت طبيعتك المشرقة تظهر من جديد».

ـ لم أطلب منك تحليل نفسيتي.

أعلنت هذا بشيء من التوتر وقد فارقتها الرغبة في الضحك. لكنه ضحك، واستاءت لذلك. قال: «هل هذا ما فعلته أنا؟».

لم تعبأ بأن تجيب، لكنه لم ينزعج لذلك بل تابع: «عليّ أن أمدحك لما فعلته؟».

أثار كلامه فضولها: «وماذا فعلت؟».

ـ لأنك جعلت منزلي «هاركورت هاوس» بيتاً حقيقياً.

حملقت فيه.. شعرت بالغرور لأنه لاحظ أنها غيرت الملاءات وعلقت مناشف نظيفة.

ـ هل كنت في غرفة الإستقبال؟

ـ أضفت الأزهار جمالاً.

وفجأة، بدا أن العداء بينهما قد تلاشى.

لم تستطع أن تفهم المودة التي شعرت بها وهي ترى «هاركورت هاوس» مرة أخرى. حتى مع المطر، بدا المنزل وكأنه يرحّب بها. وقالت لهاريس وهو ينقل كيس مشترياتها إلى المطبخ: «هل لديك وقت لتناول فنجان قهوة؟».

وضع ما يحمله على مائدة المطبخ ونظر إليها: «وهل أنا ذاهب إلى أي مكان؟».

ـ ولكنك...

وسكتت. ألم يقل لها يوم الأحد الماضي إنه سيأتي إلى الفندق ليأخذها إلى البيت قبل أن يعود إلى لندن؟ على كل حال، غمرتها بهجة غير متوقعة لأنه سيتأخر معها عدة ساعات قبل أن يعود إلى لندن. قالت وهي تتجه إلى الباب: «سآخذ حقيبتي إلى غرفتي».

رباه، كانت مسرورة حقاً لبقائه!

أوقفت أي تساؤل عما يجري لها لتشعر بكل هذا السرور، وهي ترى الدلاء التي وضعتها أمس تداركاً لأي تسرب، وقد بدت طافحة بالمياه.

وضعت حقيبتها على الأرض وفتحت غرفة قريبة منها مزوّدة بحمام، ثم حملت بحذر الدلو. كان عليها أن تحمله ببالغ الحذر، وبعد أن أفرغت محتوياته في الحمام، وضعت غيره قبل أن ينساب الماء المتسرب على الأرض.

حملت الدلو التالي، وهو ممتلىء، ببطء بالغ. لكن حين استدارت بسرعة لتضع بديلاً له، اصطدمت بهاريس الذي كان يصعد السلم. ولسوء الحظ، كان دلوه ممتلئاً، فلم يستطع أن يتحكم في محتوياته وانسكب على أرض الحمّام، بينما اندفع النصف الآخر على مالون والأرض.

كان الماء بارداً، فتراجعت مالون وهي تترنح. شهقت للصدمة المفاجئة وابتدأت تضحك. ولكن ما إن تقوّس فمها حتى وقع بصرها على هاريس، فتلاشت رغبتها بالضحك. لم يكن ينظر إلى وجهها بل إلى الماء السائل على قميصها.

لاحقت نظراته فكادت تشهق من جديد فقميصها القطني أصبح الآن ملتصقاً بجسدها. كان هاريس كويليان واقفاً من دون حراك يحدق فيه، كالمسحور!

سقط الدلو من يدها، وعندما وصل إلى الأرض وتعالت قرقعته ارتفعت عيناه إلى ملامحها المرتجفة: «مالون، أنا..».

لكنها لم تبق لتسمعه، فقد اندفعت هاربة لا تدري إلى أين، حتى وجدت نفسها في حمى غرفتها.

تبعها هاريس إلى هناك، فصاحت به وقد تواردت الصور إلى مخيلتها.. لقد صرخت بهذا الشكل في وجه لي جنكنز منذ سنوات طويلة.

أسرع هاريس إليها وأمسك ذراعها بقوة قائلاً فيما هي تحاول أن تحرر

نفسها منه: «إهدئي. لن أؤذيك. أنت آمنة معي، آمنة. دعي عقلك الخائف يفهم أنك آمنة».

حدقت مالون فيه. كانت عيناه تحدقان في عينيها بحزم، مركزاً انتباهه على إقناعها بأنها آمنة، وأنه لن يؤذيها. توقفت عن المقاومة، لكنها بقيت تراقبه بحذر.

وعندما رآها مصغية إليه، تابع يقول: «أصغي إليّ. أيّ شخص مكاني كان لينظر إليك ليرى إن أصابك مكروه. إنك عديمة الثقة، ويمكنني أن أفهم السبب. ولكن حاولي أن تثقي بي لأنني ذو..».

فقاطعته وقد أسأمتها المحاضرة: «ذو عينين لا تستطيعان الامتناع عن الحملقة».

تكلمت بلهجة عدائية، فاكتشفت أن كلماتها أقوى من مقاومتها لتحرير ذراعها من قبضته.

لمعت عيناه بخشونة، فترك ذراعها فجأة: «من المستحيل أن يتفاهم الإنسان معك!».

ثم استدار مندفعاً إلى خارج الغرفة، وبعد فترة سمعت هدير سيارته.

لا شك في أنه غير رأيه بشأن العودة إلى لندن. حسناً، إنها مسرورة، مسرورة، مسرورة. وإذا حالفها الحظ، فسينسى العودة إلى هنا تماماً.

* * *

٤ ـ ماذا يحدث لها؟

توقف المطر أثناء الليل بمعجزة، واستيقظت مالون على صباح مشمس رائع.

تمنت لو أنها استيقظت بالإشراقة نفسها. قال لها هاريس إن طبيعتها، في الأساس، مشرقة. وقد عكّرت كوابيس الليل مزاجها.

تركت سريرها وقد تملكتها الكآبة. لم تكن أحلامها هي الغمامة الوحيدة في يومها، فبسبب موقفها منه أمس، اختصر هاريس زيارته. لقد جاء إلى هنا ليرفّه عن نفسه، فأفسدت الأمر عليه.

استعرضت مالون أحداث أمس، شاعرة بالحزي من نفسها، تلك الأحداث التي دفعت هاريس إلى الذهاب مبكراً. (أنت آمنة معي. دعي عقلك الخائف يفهم هذا) هذا ما قاله لها، ولكن لم يكن لديها منطق يتقبل المحاضرات... ربما رحل لظنه أنها لن تهدأ إلا إذا خرج.

أمضت مالون يوم الاثنين في إعداد الشاي للبنائين ولم يفارقها الشعور بالحزي للطريقة التي عاملت بها هاريس. كانت تعلم أن حالتها لن تتحسن إلا بعد أن تعتذر له.

من الغريب أنها نامت تلك الليلة لأول مرة من دون أحلام، وهي التي يثقل ضميرها حمل مزعج. استيقظت صباح الثلاثاء على يوم مشمس آخر، فسارت إلى إحدى نوافذها لتنظر إلى سكون المكان وصفائه.. قبل حضور البنائين.. وإذا بها تدرك أن المنزل مبنيّ في أروع بقعة.

مع تحسن الطقس، انتعشت نفسية مالون إلى حد أنها، عندما رأت أحد العمال يلقي الجريدة جانباً، استعارتها منه. الوظيفة الوحيدة مع السكن التي أعجبتها هي في مكتب استقبال في فندق. ولكن، هل تريد ذلك حقاً؟

كان عليها أن تجد عملاً وسكناً بعد أقل من ثلاثة أشهر، لأنها لا تريد أن تلجأ إلى أمها، مما دفعها إلى التقدُّم بطلب لذلك العمل، لكنها لم تقرر تماماً وضع الطلب في البريد إلا يوم الخميس.

لم تكن واثقة من موقع أقرب صندوق بريد، فذهبت لتبحث عن كيڤين. فقال لها دين: «لن يعود كيڤين قبل ساعتين، ولكن إذا كان الأمر مستعجلاً، يمكنك أن تستعيري دراجتي».

كانت مالون تعلم أن دين هاوٍ للدراجات، فسألته: «هل أنت واثق؟».

رد بابتسامة خجول: «إنها ليست أفضل دراجة عندي».

وبعد ذلك بخمس دقائق، كانت تمضي وقتاً ممتعاً في قطع الطريق. لم ترَ صندوق بريد إلا بعد أن أصبحت قريبة من حانوت شيروين. لكنها، بعد أن وضعت رسالتها في الصندوق، شغلت نفسها في طريق العودة، بتفحص الطرق الفرعية المختلفة، إلى أن لاح لها منزل «هاركورت هاوس». فتملكها شعور بأنها ستكره مغادرة المنطقة.

بما أنها انطلقت عازمة على ألاّ تنطلق بتردد بل بأبهة، فإذا بها تعود بأبهة وسرعة معاً، وهي ترى هاريس وسيارته الفخمة.

مرّت بجانبه متابعة طريقها لتعيد الدراجة إلى صاحبها وهي تقول باسمة: «شكراً يا دين».

ـ يمكنك أن تستعيريها في أي وقت.

شكرته مرة أخرى. لكنها اعترفت بوجود كل أنواع المشاعر في داخلها، وأدركت أن لا علاقة لذلك بركوبها الدراجة بعد انقطاع سنوات.

كانت تقترب من المدخل الخلفي للبيت عندما جاء هاريس وسار بجانبها سائلاً: «لمن الدراجة؟».

ـ إنها لدين زميل تشارلي السبّاك.

وعندما أدركت أن هاريس لم يكن يسأل عن إيضاح وجدت نفسها تتابع ثرثرتها: «استعرتها لأذهب إلى البريد وأرسل طلب عمل».

وقف هاريس فحذت حذوه: «ألست سعيدة هنا؟».

حدقت مالون إليه، ثم ألقت نظرة ذات معنى على أدوات العمال المتكومة في أنحاء الردهة، ولم تكن بحاجة إلى قول المزيد.. فضحك الإثنان.

أحدث ضحكهما في داخلها شيئاً غريباً. قالت: «كنت على وشك تحضير القهوة. أتريد فنجاناً؟».

ـ كنت أظن أن عليّ تحضير قهوتي بيدي.

وابتسم لها، فأسرعت إلى المطبخ.

ـ أليس لديك عمل اليوم؟

ألقت عليه هذا السؤال وهما يرتشفان القهوة في المطبخ، ثم تملكها شعور مفاجىء بالتوتر: «آسفة، إنه سؤال غبي وأنا أراك ترتدي بذلة العمل».

ـ هل أنت متوترة الأعصاب بسببي؟

سألها بفطنة. في الماضي كان الأمر يسبب لها إزعاجاً، ولكن الغريب أنه لم يسبب لها الآن ذلك.

ـ لست متوترة.

ولإثبات ذلك، منحته ابتسامة: «ما أشعر به هو الارتباك والذنب لأنني مدينة لك باعتذار ولا أعرف أحسن طريقة لذلك».

تسمّرت عيناه على عينيها الجميلتين، وقال بهدوء: «أنا معجب بصدقك يا مالون، ولكن لا تشعري بالارتباك. هل الاعتذار الذي تدينين لي به شخصي؟».

ـ أنت تعلم أنه كذلك. لقد جئت إلى هنا في عطلة الأسبوع الماضية لكي

ترتاح، لكن سلوكي المنفعل جعلك تعود إلى لندن مبكراً.

فسألها جاداً: «هل تشعرين بالذنب لهذا؟».

فأومأت: «وبالحزي أيضاً».

فقال برقة: «مالون. لقد مررت بأوقات عصيبة. من الطبيعي جداً أن ينفعل الشخص أحياناً».

ترك كرسيه واقترب منها باسماً وهو يربت على أنفها: «وما كان ينبغي لي أن أستاء من عدم قدرتك على الثقة بي. لم تصدقيني عندما قلت لك إنك آمنة معي».

ـ آه، يا هاريس.. أنا..

ابتدأت تتكلم بعجز، وقد أدركت أنه أكثر حساسية بكثير مما كانت تظن. لكنه ابتعد عنها عدة خطوات، ناقلاً فنجان قهوته إلى المجلى.

ـ لا تهتمي للأمر.

ثم انتقل إلى موضوع جديد: «فكرت هذا الصباح في المجيء لإلقاء نظرة على العمل وتفحص بعض الأشياء مع بوب ميلر. بعد ذلك يمكنني أن آخذك لتناول الغداء في المدينة إذا شئت».

أعجبها الأمر وسرّها أنه سألها، فأجابت: «هل يمكنني أن أطهي لك شيئاً هنا؟».

فقال من دون تردد: «شكراً. هذا حسن».

ابتسمت بينما ذهب هو لتفحص سير العمل.

يبدو أنه سيعود إلى لندن حالما ينتهي من تناول الطعام، لذا فهو لا يريد أن يسرع بتناول الغداء.

عاد هاريس بعد نصف ساعة، فسألته: «هل تريد أن تأكل؟».

وعندما جلسا، أعلن: «ما ألذ الطعام مع أنك لم تعلمي أنني سأتغدى هنا. ولكن الطعام ممتاز».

ـ إنه مجرد طعام سريع.

اعترفت لنفسها بأنها تشعر بالسعادة. ومع انتهاء الغداء، قال هاريس إنه جاء اليوم لأنه لن يأتي في العطلة الأسبوعية. تملكها شعور غريب يمكن وصفه بأنه خيبة أمل، لكنها وجدت هذا الوصف سخيفاً، لا سيّما وأنّ عليها أن تذهب إلى الفندق فلا تراه أبداً حتى ولو جاء لقضاء العطلة في البيت. ولماذا تريد رؤيته؟ أليس جنوناً؟

صرفت من ذهنها هذه الأفكار، وأخذت تتذكر ما تبادلاه من أحاديث. هذا منزله، وجاءت زيارته اليوم ليتفقده، فسألته: «ما الذي جعلك تختار هذه المنطقة بالذات؟ ألأن أختك...».

وسكتت، لكن هاريس أجابها: «لم تكن فاي تسكن في هذه المنطقة حينذاك. لقد رأت «آلمورا لودج» في أول زيارة لها إلى هنا. وعندما اكتشفت أن أصحابه كانوا يؤجرونه أثناء غيابهم خارج البلاد منذ سنة، أقنعت زوجها بشرائه».

وسكت هاريس، ثم عاد يسألها بهدوء: «أرجو أن لا تكوني قد رأيته؟».

ـ لا، والحمد لله.

أجابته بسرعة واكتئاب، وتكهنت بأن ملامحها كشفت عن ندمها لإثارة الموضوع. لم تشأ أن تتذكر صهره. لكن هاريس لم يكن مستعداً للتخلي عن الموضوع، فسألها: «ماذا عن كوابيسك؟».

إنه يربط بين كوابيسها الليلية واعتداء رولاند فيليبس عليها، فصممت على أن تبدو مبتهجة: «لقد ذهبت».

ـ تماماً؟

ـ لم تعاودني منذ..

أرادت أن تقول منذ الأحد الماضي، ولكن شعورها المفاجيء بالحساسية نحو هاريس، منعها من أن تذكّره بذلك الخصام الذي حدث بينهما الأحد الماضي، لذا قالت: «ثلاث ليالٍ».

لاحظت أنه أخذ يحسب في ذهنه على الفور، ولكن كل ما قاله هو: «حافظي على هذا المستوى الجيد».

سألها: «أتريدين عوناً في غسل الأطباق؟».

أوشكت على الضحك، شاعرة بالمرح، وأجابته ببشاشة أن لا داعي لذلك، لذا خرج.

افتقدته بعد ذهابه. فتساءلت عن السبب وهي لا تكاد تعرفه؟ ما الذي تفكر فيه؟

اكتشفت صباح السبت، أن ما كانت تفكر فيه هو هاريس. فهو دوماً في بالها. حسناً، ولمَ لا؟ فلولاه الله وحده يعلم ما كان ليحدث لها.

كان العمال يشتغلون ذلك الصباح، وقد علا الضجيج أكثر من العادة، أو هكذا خيّل لها. ففكرت في الخروج للتمشي. أخذت معها حقيبة يدها، وبحثت عن كشك الهاتف لتتصل بأمها. وفي الطريق الريفي، أخذت تسير وهي تتساءل عما يفعله هاريس في هذه العطلة الأسبوعية. أترى غيابه هذه العطلة يدل على أنه على موعد مع امرأة؟ وشعرت مالون بالضيق، وإذا بها تنتبه إلى هدير سيارة قادمة من خلفها.

لم يكن هناك رصيف، فتحوّلت إلى جانب الطريق، وبدلاً من أن تمرّ السيارة بها، كما هو متوقع، إذا بها تتباطأ. عندما أوشكت على الالتفات لترى إن كان هذا الغريب يريد أن يسأل عن وجهة ما، سمعت صوتاً جمد الدم في عروقها.

ـ هل يمكنني أن أوصلك؟

إنه صوت رولاند فيليبس، هي واثقة من ذلك. أرادت أن تهرب، فلم تجب. عندئذ وقفت السيارة أمامها.. ثم عرفها.

ـ حسناً، حسناً.. مالون بريتويت!

استمرت في سيرها، فقاد سيارته بجانبها: «والآن ما الذي تفعلينه في هذه المنطقة؟».

حاولت أن تتجاهله، لكنها وجدت أن الشرير أدرك أن لا بيت في هذه الأنحاء سوى بيت شقيق زوجته.

ـ لا تخبريني أنك تقيمين في «هاركورت هاوس!».

مستحيل أن تخبره بشيء ما، لكن الخوف تملكها. لم تكن تريد أن يعرف هذا الرجل أين تسكن أو أنها ستكون هذه العطلة الأسبوعية وحدها في البيت.

ـ هل تقيمين مع هاريس كويليان؟

وقفت لتجيبه غاضبة: «أنا مدبرة بيته!».

ـ هذا اسم جديد لذلك!

وأدركت مالون أنه يفكر بالسوء، وتمنت لو أن هاريس أمعن في ضربه.

وعاد فيليبس يسأل: «هل هو هنا هذه العطلة الأسبوعية؟».

فتملكها الخوف: «سأبلغه تحياتك حين أعود. أليس كذلك؟».

استطاعت أن تتمالك نفسها وهي تسأله، ملقية نظرة ذات معنى على ذلك علّه يتذكر لكمة هاريس له. واستنتجت من النظرة الحاقدة التي رمقها بها أنه لم ينسَ ذلك، ثم وضع قدمه على دوّاسة البنزين وانطلق بالسيارة. كانت مستمتعة بنزهتها، ولكن تلك المتعة تلاشت، فاستدارت عائدة إلى البيت.

غادر العمال المنزل بعد الظهر مباشرة، فبقيت وحدها. وتمنت لو أنها طلبت منهم أن يأخذوها إلى المدينة. فأياً منهم كان ليأخذها معه. وكان سهلاً عليها أن تجد مكاناً تقيم فيه.

ولكن، رغم أن الطقس الآن مشمس، إلاّ أنه تغيّر مؤخراً إلى حد كبير. لقد أخبرت رولاند فيليبس أنها وكيلة هاريس في هذا البيت، ما يعني أن عليها البقاء هنا، على الأقل ترقُّباً لتسرب جديد من السطح.

ذهبت إلى سريرها تلك الليلة، شاعرة بقلق بالغ، ودعت الله أن يكون قد وعدها السابق قد صدّقها عندما قالت له إن هاريس موجود في بيته.

تأكدت مرتين من أن باب غرفتها مقفل من الداخل، ووضعت كرسياً وراء الباب وهي المرة الأولى منذ رحل جنكنز وابنه. وقبل أن تصعد إلى سريرها، وبالرغم من أنها واثقة من أن رولاند فيليبس، سواء أكان ثملاً أم صاحياً، لن يصعد على ماسورة المياه، إلا أنها تأكدت من أن نوافذها مقفلة.

عاودتها كوابيسها تلك الليلة، فلم تستطع أن تترك غرفتها لتلجأ إلى المطبخ كما اعتادت.

تملكها سرور لم تعرفه من قبل عندما حلّ يوم الاثنين وعاد العمال. ذهبت مع كيڤين إلى المدينة حيث تسوّقت وحاولت عدة مرات الاتصال بأمها، لكن هذه الأخيرة كانت على الأرجح في الخارج.

مع تتابع أيام الأسبوع، بدأت مالون تعود إلى حالها الذي كانت عليه قبل أن تذهب في نزهتها السبت الماضي. ومع ذلك، لم تستطع أن تودّع تلك الكوابيس التي تراودها.

يوم الجمعة وصلتها رسالة تفيد أن وظيفة الاستقبال التي تقدمت بطلبها، قد شُغلت. اعترفت مالون لنفسها أنها لم تشعر بالاستياء لذلك، وعادت إليها طبيعتها المشرقة رغم أن الجو تحوّل إلى الكآبة.

ـ لدينا بعض المشاكل.

أوضح لها تشارلي الأمر بالتفصيل بينما راحت تحاول أن تفهم حديثه عن السباكة متوقعة قدوم هاريس صباح السبت. لذا، توسلت إلى كيڤين أن يأخذها معه عندما أخبرها أنه ذاهب إلى «شيروبن». عادت من السوق بخضار طازجة وقطع دجاج، مصممة على أن تطهي مقداراً وافراً. ستتناول بعضاً منه في عشائها هذا المساء، وإذا لم يشأ هاريس الخروج أو إذا كان يبحث عن طعام، فسيتناوله. أما إذا لم يفعل، فيمكنها أن تحتفظ بالطعام إلى حين عودتها يوم الأحد.

ذهب العمال في الساعة الخامسة والنصف. وفي السادسة كان الطعام في الفرن ينضج، عندما سمعت هدير سيارة تقف. أتراه أحد العمال جاء

ليأخذ شيئاً نسيه؟ أم... أن هاريس جاء اليوم بدلاً من الغد؟

خوفاً من أن يظهر الانفعال في عينيها ووجهها، أدارت ظهرها للنوافذ. من عادة هاريس أن يمرّ قرب النوافذ بسيارته، لكن لعل بعض معدات البناء تسدّ الطريق. إذا كان القادم هاريس ويقطع المسافة مشياً سينظر إلى الداخل.

عندما سمعت شخصاً يدخل إلى الردهة، تمالكت مشاعرها. إذا كان أحد العمال، يمكنه أن يأخذ ما عاد لأجله ثم يذهب. أما إذا ترك شيئاً في الداخل، فهي واثقة من أنه سيناديها.

انفتح باب المطبخ، وعندما التفتت، شحب وجهها: «أرى أن العمل قد انتهى في هذا المكان».

قال رولاند فيليبس هذا وهو يدخل المطبخ.

شعرت مالون بالغثيان وسألته بفظاظة: «ماذا تريد؟».

ـ لا تكوني فظة، يا مالون. جئت أسدي إليك خدمة.

ـ لا أريد خدماتك!

ـ بل تريدينها. لقد اتصلت أمك.

ـ أمي..

رد باستهجان: «ألم تخبريها أنك تركتني في أحرج الأوقات؟».

ـ فكرت في أنه من الأفضل ألاّ أخبرها لماذا تركتك.

ردت عليه بحدة. ليساعدها الله، فهي هنا وحدها تماماً، بينما تنطق عينا فيليبس بتلك الشهوانية. وتابعت تقول: «وإلا لأصرّت عليّ بالذهاب إلى الشرطة».

أوضحت له مالون ظناً منها أنها تحذره.

فقال وعيناه تجولان على جسمها: «لا تكوني شريرة، يا عزيزتي. لعلمين أنك ترغبين فيّ».

قالت وهي تتراجع عندما اقترب منها: «أنت لا تعرفني!».

ـ ذنب من هذا؟

قال هذا متذمراً، وعندما اقترب خطوة أخرى منها، واشتمّت رائحة الكحول في أنفاسه، لم تعرف إلى أين تذهب.

ـ لم لا يمكننا أن..؟

ابتدأ يتكلم، ولكن كلامه تلاشى حين فُتح الباب.

ـ ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ألقى عليه هاريس كويليان هذا السؤال ووجهه عاصف كالرعد. فقفز رولاند فيليبس مستديراً إليه: «أنا.. أنا..».

ابتدأ يرفع صوته لكنه غيّر رأيه وابتعد عن مالون، وهو يقول بلهجة ليّنة بعض الشيء: «لو أن لديك هاتفاً هنا لما أزعجت نفسي بالمجيء على الإطلاق. جئت لأخبر مالون أن أمها اتصلت بها».

لكن هاريس لم يهتم لقوله: «لا أريدك في الجوار».

قال بحزم وهو يمسك باب المطبخ مفتوحاً: «أخرج وإذا وطئت قدماً واحدة في هذا المكان مرة أخرى.. فلن أدعك بسلام».

تكلّم مكشراً بلهجة تحمل الوعيد، ويبدو أنّ رولاند فيليبس يعلم أن هاريس لا يلقي بتهديداته جزافاً. لذا لم يبق ليقول الوداع بل أسرع الخطى مبتعداً.

في هذه الأثناء، كانت مالون على وشك البكاء لقدوم هاريس اليوم بدلاً من الغد، ورغم أنها كانت ترتجف إلا أنها ابتدأت تتمالك نفسها وهي تهتف: «لم أكن أتوقع قدومك قبل الغد».

عادت ترتجف من جديد وهي ترى أن هاريس فسّر وجود صهره بطريقته الخاصة وهو يقول: «هذا واضح».

فرددت كلامه بذهول: «واضح؟ لا يمكن أن تظن لحظة...».

فقاطعها: «كيف علم فيليبس أنك هنا؟».

وشعرت مالون برغبة في البكاء. كيف يظن بها ذلك؟ كيف؟ شعرت

بغضب مفاجيء. لكنها استطاعت التحكم به وهي تسير نحو الباب، وقد منعتها كرامتها من أن تتنازل وتجيبه عن سؤاله، بل قالت آمرة: «أطفيء الفرن في السابعة. أنا صاعدة لأحزم أمتعتي».

إنه وحش عنيد! وخرجت تتهادى من المطبخ، شامخة الرأس، ثم اندفعت كالعاصفة نحو السلم. كانت من الغضب بحيث كادت تنسى أن تحيد عن لوح خشبي على أرض السلم نبهها سيريل إليه هذا الصباح. وفي غرفتها كان غضبها قد ازداد إلى حد صفقت معه الباب بعنف فاهتزت النوافذ.

لم تندم ولم تهتم بذلك. كان المكان كارثة بأرضه الخشبية المتفككة وسباكته العشوائية، والطلاء المتهالك في الغرف. لم تفكر مالون، وهي تخرج حقائبها، بجمال هندسته والروعة التي سيبدو عليه حين ينتهي إصلاحه.

كيف يجرؤ هاريس كويليان على الظن أنها اتصلت برولاند فيليبس لكي يحضر حالما يخرج العمال، لأن هاريس كويليان لن يأتي قبل الصباح؟

كانت مجروحة غاضبة، كما لم تحس من قبل، وأحست برغبة قوية في البكاء. كانت قد أخرجت من خزانتها ثوبين فقط عندما انفتح الباب ودخل منه. كانت تعرف أن الكرسي يسد طريقه.. وكان الكرسي ثقيلاً بحيث كانت تدور حوله لتوفر على نفسها عناء جرّه كل ليلة لوضعه وراء الباب، لذا كاد هاريس يقع فوقه.

قالت له بلهجة لاذعة: «أنا أضع هذا الكرسي وراء الباب تحت مقبضه لمنع المتطفلين من الدخول!».

وسارت إلى إحدى الحقيبتين المفتوحتين على السرير لتضع الثوبين فيها.

أخذ هاريس ينظر إليها لحظة، ثم قال: «أنا لست ماهراً في الاعتذار».

ـ إذن تعلم أنك مخطيء؟

ـ هل تضعين حقاً ذلك الكرسي تحت مقبض الباب أثناء الليل؟

هزت كتفيها لا تريد أن تخبره بشيء.. لكن الكلمات خرجت من فمها

على أيّ حال: «ذهبت أتمشى يوم السبت الماضي. وكان صهرك ماراً بسيارته، فأدرك أين أقيم. ومنذ ذلك الحين وأنا أضع هذا الكرسي تحت مقبض الباب».

أعلن بتأثر بالغ: «مالون، يا لي من حقير».

ـ هذا (واضح)!

وافقته على ذلك، ثم تساءلت عما إذا كانت قد فقدت عقلها وهي تقذفه بكلمته.

قال بلطف: «أنا آسف».

ـ تعتذر؟ لم يؤذك ذلك، صحيح؟

ـ هل تسامحيني إذا أعرتك الخلوي لتتحدثي مع أمك؟

فترددت، ثم تمتمت: «ربما..».

ـ ألا تعلم أمك أنك تركت منزل فيليبس؟

ـ اتصلت بها.. من فندق كليفتون، لم أستطع أن أخبرها بذلك لئلا يتملكها القلق.

تبدد غضب مالون الآن فيما أخذت تطوي الثوب.

فقال فجأة: «أنت لست مضطرة للرحيل!».

كانت مالون تعلم، بعد أن تلاشى غضبها، أنها لا تريد أن ترحل، وتابع يقول: «في الواقع، لست مضطرة للذهاب إلى أي مكان هذه العطلة».

ـ هل أنت باقٍ هنا؟

كانت تضعف، وكانت تدرك ذلك.

ـ حتى يوم الأحد. حاولي أن تثقي بي، يا مالون.

لقد أصبحت تثق به نوعاً ما. نظرت إلى عينيه الرماديتين مباشرة. وهما يتبادلان النظرات، إذا بابتسامة ظافرة ساحرة تبدو على وجهه، فشعرت بالعجز. وقال متوسلاً بدعابة: «أرجو أن تبقي. أعلم أنك ستكرهينني إذا

عدت يوم الأحد فلم تجدي شيئاً من ذلك الطعام ذي الرائحة الشهية في الفرن».

أرادت أن تبادله الابتسام، لكنها لم تفعل. رغم إقرارها بأنه، بدلاً من أن يشير إلى رحيلها دون عودة، كان يسهّل فكرة العودة يوم الأحد.. هذا إذا كانت راغبة في الرحيل الآن.

ـ هل تقول إنك لن تأخذني إلى.. إلى الفندق؟

ألقت هذا السؤال الذي يعني، كما أدركت، أنها لا تنوي الرحيل نهائياً.

ـ أنت تعلمين أنني لم أقل ذلك. ما قلته إنك، رغم استحالة الوضع هنا، استطعت أن تجعلي المكان مريحاً في كل مرة أحضر فيها. واضطرارك للمغادرة بسبب مجيئي هو مكافأة هزيلة لأتعابك.

رأت أنه يقول إنها تستطيع البقاء حتماً، لكن ذهابها هو خيار شخصي. كانت تدرك أن بقاءها، يؤكد له ثقتها به.

ـ ألم تعد تظن أنني تعمدت دعوة صهرك إلى هنا؟

فأجاب بسرعة: «ما ظننت ذلك قط».

ـ أوه؟

ـ ولهذا جننت. أردت عذراً لكي أضربه.. وعندما ابتعد بسرعة من دون عراك.. كنت.. كنت بحاجة ماسة إلى ما يخفف من غضبي.

ـ وصادف أنني كنت الأقرب إليك.

ـ لم يجعلني ذلك شخصاً جيداً.

أرادت أن تعترض على ذلك فهي تتذكر كم كان طيباً معها. أرادت أن تقول له، لكنها شعرت فجأة بالخجل. ابتسمت وقالت: «تلك الهالة التي كونتها عنك انقشعت قليلاً، ولكن ما من شخص كامل».

بادلها هاريس ابتسامتها، وليكسب مودتها مرة أخرى، قال ليربح قلبها: «أتريدين أن تستبدلي حقيبة صغيرة بهاتين الحقيبتين؟».

هزت مالون رأسها: «إذا كان الأمر سيّان بالنسبة إليك.. سأبقى هنا وأشاركك هذا الطعام».

أومأ هاريس راضياً، ثم أراها كيف تستعمل هاتفه الخلوي، وتركها. اتصلت بأمها مترددة كيف تشرح لها.

ـ مرحباً، يا ماما. هذا أنا.

ـ مالون، كم ارتحت الآن! قال السيد فيليبس إنك لم تعودي تعملين عنده، عندما اتصلت به. أين أنت الآن؟ كنت قلقة..

ـ ماما، لا حاجة بك إلى القلق. فأنا لست بعيدة عن منطقة «لاور ماسي» حيث كنت أعمل، بعيدة عنه عدة أميال فقط.

ـ ماذا حدث؟

ومع أنّ مالون تكره تضليل أمها، إلاّ أنها قالت لها إنها لم تنسجم مع رولاند فيليبس جيداً، ولديها الآن وظيفة أحسن مع شقيق زوجته كمشرفة على العمال وعلى تسلّم الأثاث. وأنهت حديثها قائلة: «إنه عمل مؤقت فقط وأنا شغوف به».

ـ حسناً، ما دمت سعيدة. أنت تعلمين أن لك هنا مكاناً دائماً.

ـ طبعاً. كيف حال جون؟

وعندما أنهت المكالمة، ألحت عليها أمها بإعطائها اسم مخدومها وعنوانه لتتصل بها ما دام ليس لديها هاتف. وكذلك أرادت من مالون أن تتكلم مع جون.

ـ هل سمعت أمك تقول إنك تعملين عند هاريس كويليان.

سألها جون، وعندما ردت مالون بالإيجاب اتضح أنه يعرفه، لأنه تابع يقول: «حسناً، لا حاجة للقلق عليك. فهاريس كويليان هو رئيس شركة «وارن وتيبر» للموارد المالية وهو أكثر الرجال المعروفين، استقامة».

غسلت مالون وجهها، ووضعت زينة خفيفة عليه، ومشطت شعرها

الأشقر، ثم شعرت برغبة في تغيير ملابسها. لكن هاريس لم يكن يفوته شيء ولم تشأ أن يظن أنها غيرت ملابسها لأجله. ثم من يرتدي الملابس الأنيقة ليأكل في المطبخ؟

عندما عادت مالون إلى المطبخ، لم تجد هاريس. لكنها كانت تعلم أنه غير بعيد. إنه في مكان ما يلقي نظرة على سير العمل في غيابه.

أعدّت مالون الطعام وعندما أصبح جاهزاً، سمعت وقع خطى هاريس في المطبخ، فسألته: «هل كل شيء على ما يرام؟».

ـ بعض أجزاء البناء يتقدم بشكل أسرع من البقية.

ـ هناك لوح خشب غير ثابت في أرضية السلم.

أخذت تفكر في أنه لا يفوته شيء وإلا لما أصبح رئيساً لشركة مالية معروفة.

أثناء تناولهما الطعام سألها: «أين تعلمت الطهي؟ لم أر أي كتاب طهي في أي مكان هنا».

فردت بمرح ودون تفكير: «لطالما كنت أطهي الطعام».

ـ ألم تكن أمك تهتم بذلك؟

أتراه يحاول التنقيب في ماضيها؟ ونظرت إليه بحذر. أم أنه مجرد سؤال؟ وأخيراً، لم تجد ضرراً في أن تجيب: «لقد حطمها موت أبي، ففقدت اهتمامها بكل شيء عندما مات».

نظر هاريس إليها بطريقته الثابتة تلك، ثم سألها بهدوء: «حتى بك أنت، ابنتها؟».

كبحت مالون مشاعر الاستياء. ولكن، نظراً للمودة التي تشعر بها نحوه قررت الاستمرار في الحديث: «لأجلي فقط قررت الاستمرار في العيش بعده».

ـ كم كان عمرك حين توفي أبوك؟

ـ ثلاثة عشر عاماً. كان رجلاً رائعاً، هادئاً رقيقاً.. وجرّاحاً ممتازاً.

كان الكل يقول ذلك.

ـ هل كان جرّاحاً عاماً؟

ـ كان الأفضل في جميع الحقول. لا عجب في أن أمي توقفت عن أي نشاط.

لكن مالون لم تشأ أن تتحدث عن تلك الأيام التعيسة، وتابعت ببشاشة: «تزوجت أمي مرة أخرى مؤخراً. وبعد سنوات تعيسة مخيفة، أصبحت سعيدة مرة أخرى. وهذا هو المهم».

فقال بدهاء: «أتقولين إنه لم يعد لك مكان الآن؟».

ـ هذا ما لم أقله بالضبط. فهذا المساء فقط، عندما اتصلت بهما هاتفياً، وذاك هاتفك بالمناسبة.

وأشارت إلى منضدة العمل وهي تتابع: «قالا إن ثمة مكاناً لي معهما».

وقبل أن يقول شيئاً، تابعت بجفاء: «لكنني أفضل العيش هنا، طبعاً».

ـ مع خشب الأرض المهترئ؟

وأضاف بشبه ابتسامة: «هل كنت تعيشين مع أمك قبل زواجها الثاني؟».

ـ كان لدينا شقة صغيرة. وكانت أمي ستتكدر لو أنني قلت لها إنني سأبقى في تلك الشقة ولن أنتقل معها إلى بيت زوجها. كما أنني كنت أبحث عن بديل لوظيفتي.

ـ وهكذا اعتقدت أنك ستكونين أسعد لو وجدت عمل مدبرة منزل مع سكن مؤمن؟

ـ لم يكن العمل كله تدبيراً منزلياً. صحيح أن بيت صهرك كان يحتاج إلى التنظيف، لكنني لم أتعود على الكسل. و... مكتب رولاند فيليبس كان غارقاً في الفوضى أيضاً، فاقترح عليّ أن أنظمه، وأفرز ملفاته، إنه..

وسكتت فجأة. لم تكن تريد أن تفكر في رولاند فيليبس، فكيف بالحديث عنه. وقالت تغير الحديث: «أحضر لي «ديك» بعض الخوخ من

أشجاره أمس، فصنعت فطيرة طازجة، أم تريد جبناً بعد الطعام؟».

نظر هاريس إليها لحظات بصمت، ثم قال بهدوء: «أتعلمين، يا مالون؟ أظنني كنت الرابح عندما طلبت منك الإقامة هنا».

سرّها قوله، إلى حد لم تعرف معه ما تجيب. أرادت أن تقول شيئاً ظريفاً لكنها لم تجد شيئاً سوى الخجل. ازدردت ريقها بصعوبة، لتقول: «أتظن أن كلاماً كهذا ينجيك من غسل الأطباق؟».

فتمتم يقول مازحاً: «ثمة غسالة للأطباق هنا».

لكنهما لم يستعملا عدداً من الأطباق يبرّر استعمال غسالة كهربائية لذا غسلت هي الأواني بينما جففها هاريس. ومرة أخرى تملكها شعور بالخجل، فقد بدا قربها منه ودياً وحميماً. غيرت وضعها، مبتعدة عنه. رباه، ما الذي حدث لها؟ هاريس مجرد مساعد لها... سيذهله أن يعلم ما يدور في ذهنها.

ابتعدت عنه لتطمئن إلى أن كل شيء مرتب ثم قالت بعد قليل: «أظنني سأصعد إلى سريري».

شعرت فجأة أن اهتمامها بهاريس طغى على اهتمامها بأي رجل آخر حتى كيت مورغان.

رفعت بصرها إلى هاريس فوجدته يحدّق إليها بنظراته الثابتة تلك. وسألها: «هل تذهبين، عادة، إلى النوم مبكرة بهذا الشكل؟».

ـ لا.. ليس دائماً. لكنك هنا لتهتم بالمكان الليلة. لذا أشعر بأنني حرة في الصعود إلى غرفتي وإنهاء كتابي.

فقال برفق: «يمكنك أن تحضري كتابك إلى غرفة الجلوس».

فقالت متلعثمة: «سوف.. أ.. أرى».

لكنها تركت المطبخ، عالمة بأنها لن تعود إلى الطابق الأسفل مع كتابها.. تملكها شعور بعدم الارتياح لأنه يعلم ذلك هو أيضاً.

لم يكن السبب أنها لا تثق به كما حدثت نفسها حين جلست في غرفتها

لتحلل مشاعرها. إنها منسجمة معه في حين، وخجولة عديمة الثقة بنفسها، في حين آخر.

إنها تثق به، وهي تعرف ذلك في قرارة نفسها، إلى حد أنها أعادت تلك الكرسي إلى مكانها. لقد أدركت بعد ذلك بساعتين، عندما استلقت لتنام، أن ثقتها بهاريس ثابتة، لأنها لم تقفل بابها. وعندما تذكرت أنه غير مقفل، لم تجد سبباً يدعوها إلى النهوض من سريرها لتقفل.

ورغم أنها نامت، إلاّ أن أحلامها كانت عنيفة، فراحت تشهق مذعورة في نومها. كانت تعلم أنها تحلم، وأن هذا غير حقيقي. لكنها لم تستطع أن تجد طريقة تستيقظ بها. كانت تعتصرها قوى غامضة وانحبست أنفاسها، ولم يعد هناك هواء لتتنفس. عندما أدركت أنها تختنق، استيقظت وهي تشهق بفزع. أخذت جرعة من الهواء وحاولت جاهدة أن تقف... وشيئاً فشيئاً، ابتدأ تنفسها ينتظم. لقد أصبحت بخير. كان الأمر حلماً.. مجرد حلم.. لكنها لم تشأ أن تعود إلى النوم، لم تشأ أن تعاودها الاحلام مرة أخرى.

نزلت من السرير بخوف، وسارت نحو النافذة، تريد أن تفتحها على اتساعها. كانت بحاجة إلى هواء.. هواء بارد منعش، ثم عاد ذهنها يعمل مرة أخرى. فهاريس في الغرفة التالية، وقد يزعج صوت النافذة نومه.

ابتعدت عن النافذة، مدركة أن عليها أن تعود إلى فراشها، لكنها لم تستطع خوفاً من أن يعاودها حلمها ذاك. اختطفت عباءتها القطنية، مسرورة لأنها أبعدت الكرسي عن الباب ولم تعد بحاجة لإزاحة الأثاث.

عندما فتحت الباب بهدوء، كان الظلام دامساً، لكنها لم تشأ أن تشعل النور كيلا يسمع هاريس أي صوت، أو ربما يفتح عينيه فيرى الضوء. وعلى الفور تذكرت لوح الخشب المهترئ فتجنبته، لتجد طريقها إلى أسفل السلم.

عندما وصلت بسلام إلى أسفل السلم، أدركت الخطر المتمثل بأدوات

البناء الملقاة في الجوار، لكنها شعرت بأن بإمكانها أن تشعل الضوء الآن.

استيقظت تماماً فلم تشأ العودة إلى غرفتها كيلا يغلبها النوم مرة أخرى فتعود إلى الاستيقاظ مذعورة. سارت بهدوء إلى الباب الخارجي الذي كان هاريس قد أقفله، ثم وقفت في الخارج وسط هواء الليل البارد وأخذت تتنفس بعمق إلى أن شعرت، بعد خمس دقائق، بالهدوء الكافي فعادت إلى الداخل.

توخت الهدوء البالغ، ثم عادت تقفل الباب الخارجي. كانت تعلم أنها لا تريد العودة إلى غرفتها، وكما كانت تفعل مرات عديدة في منتصف الليل، توجهت إلى المطبخ. لكنها استغربت أن ترى المطبخ مضاءً.

أدركت أن هاريس نسي أن يطفىء المصباح قبل أن يصعد إلى غرفته، رغم أنها لا تتذكر أن المصباح كان مضاءً.

عندما دفعت الباب، تملكها الذهول لرؤية هاريس واقفاً يملأ الإبريق ماء. وهتفت على الفور: «هل أزعجتك؟».

أجابها بلطف: «ألا يمكن لرجل أن يحضّر كوباً من الشاي من دون أن تتدخلي؟».

شعرت بالفزع. لقد جاء هذا الرجل إلى منزله طلباً للراحة والاسترخاء، وها هوذا يستيقظ في منتصف الليل بسببها: «أنا آسفة».

اعتذرت شاعرة بالتعاسة، ثم استدارت لتعود إلى سريرها الذي أصبح أبغض الأمكنة إليها. صوته أوقفها عن الحركة: «كوابيس؟».

فاستدارت إليه: «كنت.. ظننتني ودّعتها، لكنها عادت».

وضع أوراق الشاي في الإبريق وهو يسألها: «متى؟ متى عادت تلك الأحلام؟».

ـ ليلة السبت الماضي.

بدا وكأنها لا تعرف المراوغة.

ـ ذلك السبت الذي خرجت فيه فقابلت رولاند فيليبس مرة أخرى.

صرّح بهذا دون أن يضطر إلى الاستنتاج، لكنه لم يسترسل في هذا الموضوع، بل دعاها: «اجلسي وشاركيني الشاي. إلا إذا كنت تفضلين شراباً أقوى».

ـ الشاي جيد تماماً.

أجابت مالون، وهي مترددة في البقاء وشرب الشاي معه وإذا بها تنتبه فجأة إلى أنها ترتدي ثياب النوم فيما كان هاريس يرتدي روباً فقط، يكشف ساقيه وصدره المكسو بالشعر. وفجأة، تقدمت وجلست على كرسي أمام المائدة.

ـ سكر؟

ـ ماذا؟

ـ هل تودين سكراً في الشاي؟

ـ ها.. لا.

أجابت بذلك وهي تقوم بجهد لتمالك نفسها: «لا أظنني أحدثت أيّ جلبة. لم أكن أريد أن أزعجك».

ـ أنت لم تزعجيني بل كنت مستيقظاً متسائلاً عما إذا كنت سأوقظك، إذا ما جلتُ في البيت.. وإذا بي أسمع أصوات أشارت إلى أنك تعانين من ضيق في التنفس.

ـ آه، يا هاريس، أنا في حالة سيئة.

نظر إليها، وأحضر كوبي شاي، ثم أجاب وهو يجلس إلى المائدة أمامها: «لا، أنت لست كذلك. أنت تعانين من صدمة أصابتك، أو كانت ستصيبك لو أنك لم تتمكني من الهرب من فيليبس».

حدقت مالون إليه. إنه يبدو متفهماً وشعرت أنّ بإمكانها أن تحدثه عن كل شيء: «ولكن، أما كان من المفروض أن أنتهي من ذلك الآن؟».

ـ لا، أبداً. فأنت حساسة للغاية يا مالون. لقد ذهبت لتسكني وتعملي في منزل فيليبس.. لإيمانك بأن فيليبس رجل شريف.

سكت فجأة ثم عاد ينظر في عينيها، رافضاً أن تحوّل نظراتها بعيداً، ثم قال بلهجة ذات معنى: «كما أن ما حدث لك من قبل...».

ـ لا. لم يحدث شيء.

أنكرت بحدة وقد فارقها الهدوء، بينما بقي هاريس هادئاً بشكل يثير الغيظ، وعيناه عليها رافضاً أن يدعها، ثم قال يعتذر من دون أن يبدو عليه الندم: «سامحيني، قلت في اليوم الذي تقابلنا فيه، إنك نلت الكفاية من الرجال الذين يظنون أنك متلهفة للخروج معهم».

ـ ألم تنسَ شيئاً آخر؟

ـ ماذا؟

ـ إنك لا تنسى شيئاً، كما يبدو.

علقت بحدة. لقد ضايقها فلماذا لا تضايقه؟ لكنه بقي ساكناً ولم يضايقه ذلك مقدار ذرة: «لم أنس ذلك. وبما أن المشاعر التي تعتمل في نفسك تريد أن تخرج، فأنت دوماً منزعجة.. خوفاً من أن يستغل أحد ما ذلك».

عاد مرة أخرى يحلل نفسيتها، فلم يعجبها الأمر، وسألته متهكمة: «أي نوع من الكتب تقرأ قبل النوم؟».

ابتسم، وكانت ابتسامته جميلة، فذاب شيء في أعماقها. وعندما سألها برقة: «ماذا حدث، يا مالون، ليجعلك تدافعين عن نفسك؟».

أرادت أن تنكر بشدة لكنها وجدت نفسها عاجزة عن ذلك.

ـ لا...

حاولت الاحتجاج، لكن الكلمة رفضت الانطلاق من بين شفتيها، فعادت تحاول: «أنا...».

ثم وجدت نفسها تحدثه، وهي ترتجف قليلاً: «بعد سنتين من وفاة أبي، تزوجت أمي مرة أخرى. وكان الزواج كارثة منذ البداية تقريباً».

فسألها بهدوء: «ولماذا؟».

ـ كان زوج أمي، أمبروز جنكنز، مهتماً بأموال أبي أكثر من اهتمامه

بإسعاد أمي.

وحولت نظراتها عنه وهي تعود إلى تلك الأيام المروّعة: «وعندما انتهى الزواج كانت أموالنا قد نفدت. حتى البيت الجميل الذي اشتراه أبي، ذهب».

ـ هل انتقلت مع أمك إلى تلك الشقة الصغيرة من دون هذا الرجل؟

ـ نعم، ومن دون ابنه الكريه!

ـ وهل عاش ابنه معكم في بيتكم السابق؟

ـ نعم. ومنه تعلمت أن أضع كرسياً تحت مقبض باب غرفتي إذا أردت العزلة.

فسألها برقة: «هل حاول أن يتحرش بك؟».

ـ لم يكن يتورّع عن المحاولة في غياب الآخرين.

ـ كم كان عمرك؟

ـ خمسة عشر عاماً. ولكن أباه بدأ عندما بلغت السادسة عشرة.

ـ أبوه! هذا الـ...

وكبح هاريس ما كان سينطلق من فمه من سباب.

ـ كان كلامه أكثر من فعله.

ـ وماذا كانت أمك تفعل طوال ذلك الوقت؟

ـ تفعل؟ لا شيء. لم تكن تعلم. كنت حريصة على ألاّ أبقى وحدي في الغرفة نفسها مع أي منهما.

ـ حسناً. ولكن.. ألم تخبري أمك بما كان يحدث لك؟

ـ وكيف يمكنني ذلك؟ فقد كانت عاجزة بعد موت أبي. لم تعلم إلا في ما بعد أنّ زوجها كان رجلاً فاسقاً.

ـ وهكذا تحملت كل ذلك وحدك؟

فقالت، محاولة أن تبتسم: «كل ذلك انتهى الآن».

ـ لكنه ترك آثاره عليك.

فقالت بمرح: «سأعالج الأمر».

ـ أنا واثق من ذلك.

شعرت نحوه بمودة بالغة، وعندما نظرت في عينيه الودودتين شعرت بغصة في حلقها. وفجأة، نهضت واقفة: «هل لديك مانع إذا لم أشرب الشاي؟».

شعرت بأنها في حاجة إلى أن تلوذ بحجرتها الآمنة.

نهض هو أيضاً من دون أن يمس الشاي، وسألها: «ماذا حدث؟».

ـ لا شيء.

ثم حدقت في وجهه الوسيم وتابعت: «لقد أخبرتك الآن أسراراً لم أخبرها لأحد قط، وأظنني أشعر بالدوار».

وابتسمت، فقال يطمئنها بهدوء: «سرُّك آمن معي».

ـ أعلم ذلك.

ـ هيا بنا نضعك في سريرك. عليك أن تستيقظي باكراً.

ضحكت لوقاحة كلامه. إنه هنا.. وهو ماهر في إعداد الشاي. ليكن بوب ميلر زبونه الأول في الغد في شرب الشاي.

أطفأ هاريس أنوار الطابق الأسفل، ثم أضاء السلم وصعد معها.

وعندما وصلا إلى الفسحة، قال محذراً: «احذري من لوح الخشب ذاك».

تذكرت كيف لاحظه سابقاً، فنظرت إليه لتذكره بأنها هي التي أخبرته عن ذلك اللوح الخشبي! لكنها لم تنظر إلى موطىء قدميها، فداست على ذلك اللوح المتهالك وبدأت تسقط عالمة، وهي تتمسك بالهواء، أن لا شيء سينقذها.

مدّ هاريس يديه محاولاً أن يمسكها. ولكن، وهو يقوم بذلك، لم يكن ينظر إلى موطىء قدميه، هو الآخر، فداس بقدمه على اللوح نفسه.. وسقط الاثنان معاً.

أوشكت مالون أن تضحك.. تعتذر.. أن تقول شيئاً مرحاً عن بيته المليء بالمخاطر.. لكنها انتبهت إلى أن جسده يلتصق بها.. ولم تتوقف لتفكر في أن قربه هذا مؤقت إلى حين يتمكن من النهوض على قدميه.

صرخت به وهي تضربه على صدره: «ابتعد عني!».

فقال يهدئها: «هششش...».

نظرت إليه، وعندما لم تر على وجهه ذلك التعبير الشهواني الذي اعتادت رؤيته على ملامح أمبروز جنكنز وابنه، أو رولاند فيليبس، ابتدأ عالمها يستعيد لونه. وتمتم هاريس: «ولا بمليون سنة. هل نسيت؟».

وشعرت بالخجل من نفسها: «آسفة».

ولكن قربه منها أوجد في نفسها شعوراً غريباً، وتمتمت: «أنا أثق بك تماماً.. ولكن فقط..».

ـ العادات القديمة تموت بصعوبة.

ـ شيئاً كهذا.

أجابت بذلك، وعندما حاول هاريس أن ينهض، نظرت إليه. تردد وعيناه في عينيها، ثم انحدرت نظراته إلى فمها، ثم عادتا إلى وجهها.

ثم، وبتمهل، عانقها بكل حنان ورقة. شعرت بدفء عناقه وأحضانه فانحبست أنفاسها. أدركت أنّ هذا العناق الرقيق سرّها للغاية. أرادت أن تبادله عناقه، لكنها خافت من أن تتحرك فيتبدّد السحر. وهكذا، بقيت ساكنة، أقرب مما كانت عليه مع أيّ رجل قط، وسرعان ما أنهى هاريس عناقه.

ثم ابتسم ونظر إليها: «لا شيء يستوجب القلق يا مالون، كنت بحاجة إلى عناق. هل قال لك أحد إن نظراتك شديدة الإغراء؟ وهذا العناق الخفيف ليس تمهيداً لشيء ما».

كان قلبها يخفق بجنون، فقالت بصوت أبح لم يدهشها: «هل ستدعني أنهض؟».

طلبت منه بعجز وهي تفتش عمّا تقوله. وعندما وقف وساعدها على النهوض، قالت بمرح: «دعني أعلم متى تجد نفسك بحاجة إلى عناق، وسأرى ما يمكنني فعله بهذا الشأن».

لم يكن قولها جاداً، ولكنه أفضل ما يمكن في هذه الظروف.

ذهبت إلى غرفتها دون أن تضيف كلمة أخرى وأغلقت الباب خلفها ثم استندت إليه، ورأسها يدور في دوامة. لقد عرفت العناق من قبل، ولكنه لم يكن بهذه الروعة. قال هاريس إن عناقه لم يكن تمهيداً لشيء ما ولكنها لم تكن تريد ألاّ يؤدي ذاك العناق إلى شيء! كانت تريده أن يعانقها مرة أخرى وبعد! رباه.. ما الذي يحدث لها؟

* * *

٥ ـ صدمة الحقيقة

في الصباح، بدت مالون متماسكة مرة أخرى، وإن كانت حائرة قليلاً لما أثاره هاريس فيها من مشاعر حين عانقها بحنان ورقة الليلة الماضية.

ستنتبه أكثر في المستقبل ولكن هذا لا يعني أن الأمر نفسه سيتكرر، فهي لن تترك غرفتها في منتصف الليل. فلا شيء حتى ولو كابوس سيحملها على ذلك.

اعترفت بأنها تشعر بشيء غريب هذا الصباح. قال لها هاريس إنها كانت بحاجة إلى عناق خفيف وبسيط، لكن قوله لم يحتوي على أي مديح. إنها تفكر في ذلك الآن، وهي تجد في قوله وقاحة! كانت تفضل أن يعانقها لأنه لا يستطيع مقاومة ذلك، وليس لرفع معنوياتها.

لذلك، قررت أن تتجنبه قدر الإمكان. لقد فات وقت الندم لأنها لم تذهب إلى الفندق الليلة الماضية. إذا طلبت الذهاب إلى الفندق الليلة، فستلفت الانتباه إلى حقيقة مشاعرها.

بعد أن ارتدت ثيابها، نزلت إلى الطابق الأسفل لتجد أن هاريس قد سبقها وأخذ يجول في أنحاء المنزل.

نظرت من نافذة المطبخ فرأته يتحدث إلى بوب ميلر. لقد جاء بوب مبكراً عن العادة. هل تعمّد ذلك عن سابق تصميم أم أن هاريس اتصل به هذا الصباح؟

لم تستمر مالون في التساؤل طويلاً. كانت قد أعدّت الشاي لتوّها حين

عاد هاريس إلى المطبخ، وشملها بنظراته وهي مرتدية الجينز الطويل، والقميص المقفل.

ـ كيف حال وكيلتي المفضلة؟

قالها بعفوية وهو يتقدم ناظراً في وجهها وكأنه يقيّم حالتها. وأجابت بمرح: «في أحسن حال».

لم تكن تريده أن يعلم أنه شغل بالها ليلاً: «أحضر باز بعض البيض الطازج أمس. أتريدها مسلوقة أم مقلية؟».

تبادلا النظرات، ولكن نظرة واحدة منها إلى وجهه جعلت قلبها يخفق. وعندما بدأ يبتسم حولت عينيها بعيداً. وأجاب: «لم آكل بيضاً طازجاً منذ سنوات».

سكبت مالون الشاي وناولت بوب ميلر فنجانه من نافذة المطبخ، ثم انشغلت بسلق البيض لتصرف ذهنها عما تشعر به من توتر واضطراب.

وأثناء تناولهما الفطور، سألها: «هل تلقيت رداً حول طلب العمل الذي أرسلته؟».

ـ وهل تطلب مني الرحيل؟

سألته وهي ترتجف، فأدركت أن توترها يزداد، أكثر مما كانت تظن. وخصوصاً عندما نظر إليها بدهشة: «ما الذي جعلك تظنين ذلك؟ ألم أقل لتوّي إنك وكيلتي المفضلة؟».

احمر وجهها ارتباكاً: «نعم، هذا ما فهمته منك. حسناً، إنهم لا يريدونني في الوظيفة».

ـ خسارتهم هي ربح لي. بمناسبة الحديث عن الرحيل، ربما من الأفضل أن تغيبي هذا النهار.

نظرت إليه باتزان: «لكنك لا تطلب مني الرحيل؟».

ـ لا، بكل تأكيد. هناك أكثر من لوح خشب واحد مهترئ على فسحة السلم. وقد رتبت الأمر ليغيّروا كل الألواح القديمة، ولا شك أن الضجة

ستكون مروّعة.

اعتادت مالون على جلبة البناء، لكنها تفهمت وجهة نظره: «شكراً لهذه الفكرة المفيدة».

ـ يمكنني أن آخذك إلى المدينة بسيارتي، وبهذا يمكنك أن تتسوقي كما تشائين.

لكن قلقاً اعتراها ولم تفهم سببه، كانت تعلم أن جلوسها بجانبه في السيارة لم يكن جزءاً من خطتها في تجنُّبه قدر إمكانها.

ـ إنه يوم جميل، وأظنني سأذهب في نزهة طويلة على الأقدام.

أجابت بذلك ثم تذكرت على الفور يوم السبت الماضي عندما صادفت رولاند فيليبس.

أخذت عيناه تتفحصان وجهها: «أتريدين صحبة؟».

سألها بحذر، وأنبأتها حساسيتها المفرطة أنه تذكر رولاند فيليبس هو أيضاً. فأجابت ببطء وصدق: «هناك أشياء عليّ أن أقوم بها بمفردي».

ابتسم هاريس مشجعاً: «يا لوكيلتي الماهرة».

لكنها شعرت بسرور بالغ.

انطلقت حالما انتهت من غسل الأواني، وسارت بثبات على الطرقات القديمة بين الأشجار الخضراء. لم تكن تقصد مكاناً معيناً، لكنها كانت تحمل بعض النقود تحسباً لمرورها بدكان ما.

كان اليوم جميلاً، كما قالت لهاريس، وبما أنها عانت من الطقس الممطر، شعرت بالبهجة للخروج. لقد عرض عليها صحبته فرفضت. لكنه لم يبارح ذهنها وكأنه كان يسير معها.

لم يكن لدى مالون فكرة عن المسافة التي قطعتها إلى أن اكتشفت فجأة أنها في منطقة «شروين». وبدا لها مكاناً جيداً للتوقف.

وفيما استدارت متوجهة إلى الدكان، رأت رجلاً يخرج منه نحو سيارته المتوقفة. كان رولاند فيليبس، وبما أنه لم يرها، يمكنها أن تختفي في الطريق

الذي جاءت منه، ثم تبقى متوارية حتى ينطلق في سبيله.

لكنها ترددت. كان تفكيرها صائباً. لكنها تذكرت فجأة قول هاريس فأدركت أن هربها لن يقضي على مخاوفها الشخصية.

تابعت سيرها، ورآها فوقف وقال بلؤم: «حسناً، ها هي رفيقة هاريس الصغيرة».

وأخذ يتفحصها بنظراته، بينما استمرت هي في طريقها دون كلمة. ويبدو أن الأمر لم يعجبه لأنه قال لها: «أنا ذاهب في اتجاهك، إذا شئت سأوصلك».

ـ لا، شكراً.

ـ هيا، لا تكوني عنيدة.

ووضع يده على ذراعها لمنعها من السير.

شعرت بالاشمئزاز للمسته. وبدلاً من شعورها بالخوف، أحست فجأة بالغضب، فقالت بحزم: «إرفع يدك عني».

فقال بابتسامة ظنها خلابة: «لا تكوني فظة!».

وإذا بغضب مالون يزداد، لأنها تركت هذا المخلوق يسبّب لها كل تلك الكوابيس المرعبة.

ازداد غضبها إلى درجة جعلتها تقول: «أنت لا تعجبني. أنت في نظري كريه للغاية. وفي العادة، أنا لا أحط من قدري بالحديث إلى أمثالك، لكنني أقوم باستثناء هذه المرة لأخبرك بأنك إذا اقتربت مني مرة أخرى، فأنا لن أتردد في أن أتقدم بشكوى ضدك إلى الشرطة».

لم يعجبه كلامها، لكنها لم تهتم، فلم يعد لديها شيء تقوله له. نزعت ذراعها من قبضته، ثم تابعت طريقها إلى الدكان، ومن هناك سلكت طريق «ماركورت هاوس». لو أنها فكرت مسبقاً في احتمال مواجهتها رولاند فيليبس، لظنت أنها ستنفجر باكية، لكنها شعرت الآن بالبهجة.

كان جميلاً للغاية ألاّ تشعر بالخوف مرة أخرى. ولكن ذلك الرجل

المقزز يستطيع أن يهزمها جسدياً، إلا أنه كان ذكياً. ذكياً بما يكفي ليعلم أن أي خبر عن محاولته اغتصاب امرأة، كفيل بأن يهز وظيفته المرموقة في تلك الشركة الضخمة التي يعمل فيها. وتساءلت عما منعها من التفكير على هذا النحو من قبل، ولم تجد عذراً لها سوى الخوف من هذا الرجل.

كلما اقتربت من «هاركورت هاوس» كلما كانت صورة رولاند فيليبس تبهت في ذهنها، لتحلّ مكانها صورة هاريس. وتساءلت عما يفعله مع النجارين المشغولين بتغيير ألواح الخشب الأرضي. وفجأة، تملكها اضطراب لفكرة أنه ما دام يأتي إلى بيته ليستريح، فلا بد أنه عاد إلى لندن هرباً من كل هذه الجلبة.

لدى وصولها إلى طريق المنزل، بحثت عيناها عن سيارته. كان معظم العمال قد فرغوا من العمل، ورأت سيارة بوب ميلر وسيارة سيريل إضافة إلى سيارتين أخريين، ولكن لم تكن أي منها سيارة هاريس.

حدثت نفسها بأنها غير قلقة. ولماذا تقلق؟ لهاريس الحق في الحضور والذهاب متى يشاء. عندما بلغت الباب الأمامي، ارتأت الدخول من الباب الخلفي. ولكن سيارته لم تكن هناك أيضاً.

دخلت مالون إلى المطبخ، فتبدد شعورها السابق بالبهجة، كلياً، وحلّ مكانه الكآبة. رغم أنها رأت أن الأرض قد فرشت بمزيد من السجاد لكتم الضجيج الذي كان يصم الآذان.

في الساعة الرابعة والنصف، أنهى العمال تغيير الألواح وذهبوا إلى بيوتهم. فأخرجت مالون المكنسة ونظفت السلم والردهة مزيلةً الحطام والغبار عن الباب الخلفي.

عندئذ، دخلت سيارة الڤان التابعة لبائع الأدوات الكهربائية. وقفت تنظر، آملة في أن لا يكون السائق قد رآها فدخل ليسألها عن مكان ما... فباستثناء دكان «شروين» ومنزل «آلورا لودج»، كانت غريبة عن هذه المنطقة.

ـ الآنسة بريتويت؟

هتف السائق باسمها وهو يترجل من السيارة، وقبل أن تجيب، تابع يقول: «أحضرت لك تلفزيون».

فتحت فمها، لتبتسم. بانت سيارة هاريس في الطريق، فعادت بانتباهها إلى الرجل: «من الأفضل أن تحضره إلى المطبخ. لا أظنه ضرورياً في غرفة الاستقبال».

ـ بل هو ضروري. لقد سبق وأتى أحدنا اليوم.

ـ إذن، فليكن في غرفة الاستقبال.

ثم أرته المكان، وكانت في المطبخ عندما تبعها هاريس بعد أن توقف ليتحدث قليلاً إلى الرجل.

اقترب منها: «كيف كانت نزهتك؟».

ألقى عليها السؤال بهدوء وعيناه تتفحصان وجهها وكأنما حدث شيء ما.

ابتسمت بمعنويات مرتفعة، ولم تشأ أن تتحدث عن رولاند فيليبس. وأجابت: «بخير».

بدا هاريس متوقعاً مزيداً من التعليقات فأضافت: «ظننتك عدت إلى لندن».

ـ وهل هذا يعني أنك مسرورة أم آسفة؟

ولكنه استدار مبتعداً وهو يقول خارجاً من المطبخ: «ذاك هو جهاز التلفزيون».

كانت واثقة من أن الابتسامة تغزو وجهه فتكهنت بأنه صعد إلى الطابق الأعلى ليتفحص أرض السلم الجديدة.

فكرت في أن تصعد هي أيضاً وتغير ملابسها التي ارتدتها طوال النهار، لكنها فجأة، شعرت بالخجل. ورغم أنها أخذت تفكر في سخافة موقفها، إلاّ أنها لم تستطع أن تجتاز حاجز الخجل. لقد وقعا أمس هناك على الفسحة

وعانقها و . .

نبذت مالون هذه الأفكار . . رباه، لم يكن سوى عناق . . . ورغم أنه لم يكن ذاك العناق البريء كلياً، إلا أنه لم يكن شهوانياً أيضاً.

ركزت أفكارها على العشاء. لقد اشترت بعض اللحم المفروم من «شروين» آملة في أن يحب هاريس المكرونة السباغيتي. وعندما سمعته ينزل السلم ويتجه نحو غرفة الاستقبال، تسللت من المطبخ وصعدت إلى غرفتها لتغير ملابسها. كانت متلهفة إلى أن تأخذ دوش، لكنها نسيت أن تخبر السباك عنه.

غسلت يديها ووجهها وارتدت ثوباً قطنياً ثم نزلت إلى الطابق الأسفل فوجدت أن العامل الفني قد ذهب وكان هاريس قادماً إلى المطبخ مع صندوقين يحويان بقالة.

ـ ماذا يحويان؟

ـ ربما أشياء عديمة النفع. ولكن، ما دمت ترفضين القدوم معي، فتصوّري ماذا بإمكان رجل أن يشتري من سوبر ماركت؟

ضحكت، وكانت تبتسم عندما رأت أن عينيه استقرتا على وجهها. وتملكها الذهول فجأة للمنحنى الذي اتخذته أفكارها، ففارقتها الابتسامة وشعرت بالارتباك.

سألته بعد فترة: «هل تحب المكرونة السباغيتي؟».

ثم انتبهت إلى أنه يحدق فيها وكأنه يتساءل عما حدث لها فجأة فساءها الأمر. توقّعت أنه سيطلب معرفة السبب في تحوّلها من الابتسام إلى الجمود، لكنه ترك الأمر يمرّ.

ـ المكرونة السباغيتي هي أحد الأطباق المفضّلة لديّ.

رد بشيء من الفتور فأدركت أنه لا يحبها وأنه يكذب عليها.

لكنها لم تشعر برغبة في الضحك. وغادر هو المطبخ بعد دقائق، وبعد نحو دقيقة سمعت صوت التلفزيون.

بعد حوالى ساعة ونصف، جاء إلى المطبخ للعشاء، وأدركت أنها كانت تشعر بالتوتر أكثر منه بالارتباك. لم يتملكها مثل هذا الشعور قط، فلم تستطع أن تفهم. ظنت أنها قد تتفهم ذلك أكثر لو أنها لم تكن تشعر بشيء نحو هاريس، لكنها تعزّه جداً.

أثناء العشاء أخذ يتحدث برقة بالغة وطلاقة، ففارقها التوتر. تملّكها اهتمام حقيقي عندما حدثها عن خططه للمنزل، وبدأت تشعر بالاسترخاء والراحة، إلى درجة أنها تضايقت قليلاً حين تحوّل الحديث إلى مناقشة الكتب التي قرآها.

لاحقاً، وقف هاريس يجفف الصحون التي كانت تغسلها فعاد إليها ذلك التوتر المزعج.

ـ أظن أننا انتهينا.

قالت وهي تنظر حولها لترى إن كانا قد نسيا شيئاً، ثم فكرت في أن تذهب قبل أن يلاحظ توترها. شعرت بأنها تعرفه الآن إلى حد أنه سيسألها عن سبب توترها. ماذا تقول له بينما هي نفسها لا تعرف؟

قال لها مداعباً: «أظنك حظيت بسهرة لطيفة أمام التلفزيون».

نظرت إليه فقفز قلبها بجنون. عندئذ، أدركت أن هذا التوتر والاضطراب اللذان يتملكانها لن يسمحا لها بالجلوس معه صامتين في غرفة الجلوس.

ـ أنا . . سوف . . أصعد إلى غرفتي.

أجابته شاعرة بالذعر لما بدا عليه صوتها من تكلف. وأضافت كاذبة: «وصلت في كتابي إلى قسم مشوّق».

نظر إليها، لكن لهجته كانت لينة حين قال، بعد أن تأملها قليلاً: «لن تدير التلفزيون إذا شئت أن تحضري كتابك إلى غرفة الجلوس».

آه، هذا فظيع. ما الذي جرى لها؟

ـ أظنني سأنام باكراً.

رغبت في إنهاء الحديث، فدارت حوله لتخرج لكنه استدار وتقدمها: «هل حدث شيء، يا مالون؟».

سألها بهدوء فتملكها شعور بالسوء. وأجابت وهي تتمنى من كل قلبها أن يدع الأمر عند هذا الحد: «لا شيء. صدقني».

وحدقت إليه وقد بدا الانزعاج في عينيها.

قال وهو ينظر إليها بحدة: «أتعلمين؟ ليس عليك أن تقلقي من شيء. أم تريدينني أن أرحل؟».

انحبست أنفاسها. لا.. إنها لا تريده أن يرحل. وأجابته بمثل حدته: «لا، لا أريدك أن ترحل!».

ـ تعلمين أنني لست مثل فيليبس؟

فهتفت: «طبعاً أعلم! وأنا لست قلقة بتاتاً. أريد فقط.. تصبح على خير».

حدّق إليها قليلاً، ثم أفسح لها المجال لتمرّ وخرجت هي بسرعة. لماذا لا يمكنها أن تكون طبيعية معه؟ لماذا يجعلها مضطربة ومتوترة؟

وصلت إلى غرفتها، فتملكها القلق مرة أخرى وهي تشعر بحافز قوي يدفعها إلى العودة إلى الأسفل لتطمئن هاريس إلى أنها تثق به كلياً، ولا تشعر للحظة واحدة بالقلق لجلوسهما معاً تحت سقف واحد. لكنه سيظنها مخبولة إذا ما أصرّت على إبلاغه أنها غير قلقة، فقررت ألاّ تستسلم للحافز الذي يدفعها إلى النزول إلى الطابق السفلي.

أخذت كتابها إلى الكرسي قرب النافذة.

كان الهدوء دوماً يتملكها عند تأمُّل المناظر من نافذتها، ولكن اضطرابها منعها من الهدوء، أو الانسجام مع كتابها، فوضعته جانباً شاعرة بالحاجة إلى القيام بشيء ما.

دخلت الحمام لتغسل وجهها وأسنانها، متمنية لو أن الدوش صالح للعمل. جربته مرة أخرى، دون فائدة. أترى يملك هاريس واحداً صالحاً في

غرفته؟ لا.. رفضت الفكرة. ثم تذكرت أن هناك حماماً عند فسحة السلم.

بعد ذلك بدقيقة، فتحت بابها ثم أصغت. كان صوت التلفزيون الخافت صادراً من غرفة الجلوس. أغلقت بابها بخفة، ثم خلعت ملابسها بسرعة ولبست مئزرها القطني. اختطفت صابونة ومنشفة، وبلمحة بصر، خرجت إلى فسحة السلم، وإذا بها تجد أن باب الحمام يحتاج إلى أكثر من دفعة لينفتح.

دفعته بوركها.. فانفتح. أغلقت الباب خلفها وأخذت تختبر الماء لترى إن كانت آمالها خائبة. لكنها وجدت الدوش في حالة جيدة! عقدت شعرها إلى أعلى ثم دخلت الدوش.

وقفت تسكب الماء على كتفيها مدة طويلة قبل أن تستعمل الصابون. ولكن كل الأشياء الجميلة تنتهي، لذا غسلت جسدها من الصابون وأقفلت صنبور الماء، ثم لفت نفسها بمنشفة كبيرة، غطت جسمها كله.

أغلقت شاردة باب الدوش قبل أن تخرج. ولكن عندما داست على أرض الحمام، التفتت لتتفقد موضع قدميها.. في هذا المنزل المليء بالمخاطر حيث لا يعرف المرء متى يقفز شيء ويعضك.. كما سبق واكتشفت.. وإذا بها تشهق برعب بالغ وهي ترى هاريس واقفاً هناك يتأملها والماء يقطر من ساقيها.

كان يرتدي قميصاً وبنطلوناً وعلى كتفيه منشفة. ويبدو أنه دخل لتوّه، وقد استدار بعد أن أغلق الباب خلفه. بدا عليه الافتتان بمظهرها، وجمدت مالون مكانها، وعندما أصبح اللون القرمزي لون وجهها الوحيد، أطلقت صرخة ذعر حادة وقفزت راكضة نحو الباب. وعلى الفور، عرف ما تنويه، فخطا إلى يمينه بسرعة، مبتعداً عن طريقها. ولسوء الحظ خطت إلى شمالها، فاصطدما. مدّ يده ليسندها فأحرقتها لمسته، وتسمرت نظراتها على الباب. دفعته عن طريقها، ثم اندفعت نحو الباب بقوة، فوجدته مغلقاً لا يُفتح!

تملكها الذعر، فيما راح هاريس يفكر بهدوء. رأى أغراضها حيث تركتها، فلحق بها وأدركها عند الباب وهو يخفف عنها قائلاً بهدوء: «لا بأس عليك يا مالون. أنت آمنة، لن يؤذيك أحد».

ورغم أن ذعرها خفّ قليلاً، إلا أنها لم تستطع أن تخفي استياءها. فانفجرت قائلة: «كيف تدخل من دون أن تتأكد من خلو الحمام».

واستدارت تواجهه وتحدق إليه، فقال مداعباً: «آسف لتطفّلي سيدتي الجميلة».

لم تصدّق حين وجدت نفسها تبتسم. وتكهنت بأن هذا ما يريده، وقالت: «كنت أريد أن أبلغ السباك عن حمامي لأنه كان معطلاً هذا الصباح».

ـ وكذلك الأمر في غرفتي. عندما سمعت تدفق الدوش، رأيت أنها فكرة جيدة، فجئت لأرى إن كان الدوش هنا صالحاً للعمل.

ثم ابتسم وسألها: «هل أنت بخير الآن؟».

فقالت متلعثمة: «نعـ.. نعم».

لقد تجاوزت الصدمة. لكن وجوده قريباً منها إلى هذا الحد جعل إحساسها به يزداد. فقالت: «سأذهب».

ثم استدارت إلى الباب مستعدة لجذب مقبضه مرة أخرى بشكل أعنف.

أما هاريس فمدّ يده إلى المقبض في الوقت نفسه وهو يقول: «هذا عمل للنجارين».

ثم أراد أن يزيحها، وإذا به يضع ذراعه، من دون تفكير على مقربة من كتفيها.

جعلها الشعور بيده وبذراعه قرب كتفيها تتجمد مرة أخرى. لم تكن تتحرك على أيّ حال. التفتت قليلاً نحوه. والتفت هاريس بدوره، وإذا بهما يتواجهان مرة أخرى ليحدقا إلى عينيّ بعضهما البعض.

أبعد يده عنها، وسحبت يدها عن مقبض الباب.

ـ مالون.

تمتم باسمها. وببطء، أحنى رأسه، وما كانت مالون لتدير رأسها عنه. عندما عانقها جاء عناقه كما تريد هي، رقيقاً. وانتهى بمثل السرعة التي ابتدأ بها. شدّها إليه، وكأنه لم يستطع المقاومة، فدفن وجهه في عنقها وقال بصوت خافت: «رائحتك رائعة».

وابتدأ قلبها يخفق بجنون، وشعرت بقبضته تشتد على خصرها لثوان ثم ما لبث أن تركها وتراجع إلى الخلف. نظر في عينيها متأملاً ثم سألها: «هل ستسامحينني لأنني تصرفت كرجل؟».

اختفى شعورها بالذعر، ولكن قربها من هاريس أرسل في جسدها كل أنواع المشاعر: «أظن.. عليّ أن أذهب».

لكن قرارها لم يكن ثابتاً لأنها لم تكن ترغب في الذهاب على الإطلاق.

سألها وقد سقطت يداه إلى جانبيه: «ألست خائفة مني؟».

شعرت مالون بكل شيء عدا الخوف، وأجابته باسمة: «على الإطلاق».

ثم أضافت، ربما بصدق أقل قليلاً: «أنا لا.. أعني.. أعلم أنه كان مجرد عناق صغير، لكنني لا أريد مزيداً منه».

عناق صغير؟ لقد أطاح بدماغها!

بادلها هاريس ابتسامتها ثم ابتعد، نصف خطوة، وهو يقول: «مالون بريتويت الصغيرة...».

كانت دوماً تظن نفسها طويلة... لكنه تابع قائلاً: «ألم تتعرضي للإغراء مرة».

كان بإمكانها أن ترفض الرد على هذا السؤال، لكنها لم تفعل. وفجأة، شعرت بالسعادة. إنها تشعر بالسعادة والارتياح معه مرة أخرى، وكذلك بالقدرة على إخباره بكل شيء. فقالت مقرّة:

ـ بلى، منذ شهرين أو نحو ذلك.

ـ ما الذي حدث؟

من الغريب أن مالون اكتشفت أن لا ضرر في أن تخبره: «قال إنه يحبني، وقد تواعدنا معاً في عطلة الأسبوع. ولكن، في آخر لحظة، لم أذهب، فأخذ صديقتي بدلاً مني».

فتمتم: «يا للحبيبة المسكينة».

ـ حسناً، كانت هي صديقته أيضاً. كنا، نحن الثلاثة، نعمل معاً.

ـ هل هذا هو السبب لتركك عملك؟

كان سؤالاً فظاً، لكنه لم يكن يبتسم. لم يكن يريدها أن تجيب ولكنه سألها فجأة: «هل كنت تحبينه؟».

نظرت مالون إليه بنفس الجد الذي يبدو عليه، ثم شهقت بدهشة. لقد خطر لها في هذه اللحظة أمر وقع كالصاعقة عليها فأشاع الاضطراب في كيانها لأنه فسّر السبب الذي جعل مشاعرها مؤخراً، تعتمل في داخلها نحوه.

ـ لا. لم أكن أحبه.

ـ ولكن، وفقاً لشخصيتك، لا بد أنك كنت مولعة به حتى قبلت الخروج معه.

ـ كان ذلك منذ وقت طويل.

صرفت عن ذهنها الموضوع بمرح وهي ترى هاريس يتقبّل ذلك وكأنه شيء حدث في ماضيها ومات ودُفن. ثم تابعت تقول: «من الأفضل أن أذهب وأتركك تستحم».

قالت هذا رغماً عنها، فسألها: «هل أستطيع معانقتك قبل ذهابك؟».

ابتسمت مالون له فيما لم يجرحها قوله هذا، ولن تجد أفضل منه ليعانقها. علاقتها القصيرة مع كيت مورغان لم تعد تؤلمها الآن، وهي سعيدة بذلك.

تقدّمت منه فوضع يده على كتفيها، فشعرت وكأن تياراً كهربائياً

مسها. كانا متقاربين يحدقان ببعضهما البعض. فجأة، بدا وكأنهما تحركا معاً، وسرعان ما تعانقا. لم يكن عناقه هذه المرة شبيهاً بما اختبرته معه من قبل، حيث كان عناقه رقيقاً حنوناً... وسرعان ما أذعنت مالون لرغبتها في أن تدنو منه أكثر، فطوقت عنقه بذراعيها فيما أخذها هو بين ذراعيه، وعانقها بشغف أكبر.

ـ مالون الحلوة.

تمتم بذلك، ثم أبعد وجهه لينظر في عينيها، وقال برقة بالغة وكأنه لا يستطيع المقاومة: «يا عزيزتي».

كانت متلهفة إلى عناق آخر، فازداد عناقه هذه المرة عنفاً، وعاد يحتضنها مطولاً.

طوّقته بذراعيها، فيما جذبها إليه بمزيد من الشدة.

ألقت رأسها على كتفه، وقربه منها يكاد يصيبها بالجنون. عانقها مرة أخرى فكاد يخطف أنفاسها.

وابتدأت تغرق في فيض الأحاسيس التي أثارها فيها، وصدرت عنها شهقة مؤثرة.

وصل إلى مسامع هاريس هذا الصوت الخافت فجمد مكانه، ثم تراجع وأخذ ينظر إلى وجهها.

قال يطمئنها بهدوء: «أنت لست في خطر».

ـ أنا...

كان هذا كل ما استطاعت قوله عندما استقرت عيناه على وجهها. أخذ ينظر متفحصاً إلى عينيها المضطربتين، وكانت هي تجاهد بيأس لكي تجمع شتات نفسها. قالت كاذبة: «لا أريدك أن تعانقني مرة أخرى».

ـ ما كان لي أن أفكر في هذا السلوك الشائن.

لكنه كان جاداً عندما سمح للضوء بأن يفصل بينهما، وقال: «أنا أعني ما أقوله يا مالون.. فأنت بأمان».

ـ أعلم هذا.

أجابته بذلك ثم تحوّلت عنه. لكنها كانت مضطربة ولم تتمكن من فتح الباب الموصد.

تقدم هاريس إلى نجدتها يفتح لها الباب لتخرج. وقبل أن يتركها، سألها: «هل أنت بخير، يا مالون؟».

كيف يمكنه أن يكون بكل هذا الهدوء بينما هي ثائرة الأعصاب بهذا الشكل؟ وأجابته تطمئنه: «أنا بخير، فلا تقلق».

ثم مرت بجانبه متجهة إلى غرفتها.

آمنة؟ لقد أثار فيها مشاعر وأحاسيس صاخبة خارجة عن السيطرة. ولكن من الواضح جداً أنه يتحكّم بمشاعره طوال الوقت وهو يقول لها (أنت في أمان). لقد عانقها، وكانت مشاعرها متدفقة، لكن عناقهما لم يؤثر عليه على الإطلاق.. وإلا كيف استطاع أن يتركها بهذه السهولة؟ آمنة؟ وما هو الأمان وهي تحب رجلاً لا يريد أن يعلم؟

***

٦ ـ هل يخون الجسد؟

منذ اللحظة التي استيقظت فيها مالون صباح الأحد، شغل هاريس ذهنها. إنها تحبه وهي حقيقة لن تتبدّد. الشيء الغريب الوحيد هو إدراكها ما يجري داخلها؟ لقد ابتدأ الأمر منذ الأسبوع الأول الذي عرفته فيه!

حدثتها بذلك لحظات الخجل تلك، وانعقاد لسانها. ولكن، ما أجمل أن تراه. هذا هو السبب الذي يجعلها قلقة أحياناً. هذا هو السبب.. ووجدت نفسها تسترجع عناقه ولمساته.

ما الذي جعلها تظن أن شعورها ذاك نحو كيت مورغان كان حباً؟ لقد جرحها حينذاك، لكن أتراه كان جرحاً لكرامتها فقط؟ ربما تألمت قليلاً حين تبين لها أنه متقلب المشاعر ومن طينة أمبروز جنكنز وابنه لي.

ومهما يكن، باتت تعرف الآن قوة مشاعرها نحو هاريس.. حبها له.. إن ما شعرت به نحو كيت لم يكن حباً.

تركت سريرها لتغسل وجهها وترتدي ثيابها، متسائلة عما إذا كانت، حينذاك، تفتش عن عذر ما كيلا تذهب مع كيت.

لكن كيت مورغان كان بعيداً عن ذهنها عندما فتحت باب غرفتها، فتوقفت قليلاً وجذبت نفساً عميقاً.

أدركت من الأصوات الصادرة من الأسفل، أن هاريس مستيقظ ويجول في الأنحاء. ومرت لحظات شعرت فيها باضطراب في مشاعرها، فهي تريد أن تراه، ومتلهفة إلى ذلك، ومع ذلك تشعر بخجل ساحق تعجز معه عن

الحركة.

لكنها أدركت أنها لا تستطيع أن تقف مترددة خجلى طوال النهار، جذبت نفساً عميقاً آخر، ثم انطلقت دون فكرة عما ستقوله له. لقد كذبت عليه الليلة الماضية حين أخبرته بأنها لا تريده أن يعانقها مرة أخرى.. ولكن، رباه، كم كانت تريده أن يعانقها ويستمر في ذلك.. ! لقد أيقظ فيها الشوق إلى الحب. لو أنه رفض أن يصدق كذبتها فهي لا تعرف ما كان سيحدث. لم تكن خائفة على الإطلاق.. إنها واثقة تماماً منه.

والآن كيف يجب أن تحييه؟ هل تحييه ببشاشة تحية الصباح؟

إن مأزق مالون، بعد ذاك العناق الحميم الذي جرى بينهما الليلة الماضية، سرعان ما تبخر عندما دخلت المطبخ خجلى من النظر إليه، وإذا بنظراتها تقع على حقيبته التي يعدّها لعطلة الأسبوع، على المائدة مع مفاتيح سيارته!

كاد الخوف يعصف بها. كل شيء واضح.. هاريس على وشك الرحيل.

اندفعت تقول له دون تفكير: «لست بحاجة إلى الرحيل بسببي».

حالما صدرت عنها هذه الكلمات، تمنت لو تسترجعها، لكن الوقت فات. تمنت لو تهرب وتختبئ، لكن هاريس كان يبتسم: «بسببك؟».

لكنها تدرك أنه فهم جيداً ما تعنيه، رغم أن الاضطراب حال دون أن تعلم ما إذا كان يغيظها. ولكن الغزل الذي دار بينهما ليلة أمس جعلها تقول بابتسامة عريضة: «إذا وعدتني بألاّ تدخل أيّ غرفة، مرة أخرى، من دون أن تطرق بابها أولاً، أعدك أنا بألاّ أتبختر مرة أخرى، هنا وهناك».

بادلها الابتسام، ثم تلاشت ابتسامته وهو يسألها بجد بالغ: «هل نمت جيداً؟ دون نتائج سيئة؟».

لم تنم جيداً، ولكن ليس بسبب القلق أو الخوف. فما كانت خائفة منه الآن هو أن تفضح مشاعرها نحوه.

وعندما تأخرت في الجواب باحثة عن كلمات حيادية، قال: «مالون العزيزة، يجب أن تنامي جيداً. أنت لم تكوني قط في خطر».

إذا كان يحاول أن يهدىء من أي مخاوف تملكتها، فهي لم تشكره لهذا، وكأنه يقول لها إنها لو لم تتوقف عن غزلهما، لفعل هو، وإما أنه يقصد بأنها لا تتمتع بأيّ جاذبية.

بكبرياء يائسة، وجدت نفسها تقول بابتسامة عريضة، دون أن تهتم بأنها نزلت من غرفتها فقط لتجعله يعلم بأنها لا تهتم مثقال ذرة لمصيره: «لا بأس إذن، ماذا تريدني أن أخبر السباك غداً؟».

تجرأت على إلقاء نظرة عليه، فخيّل إليها أنها رأت لمحة إعجاب في عينيه لسلوكها لكنها لم تكن تثق تماماً بمخيّلتها، فبقيت متمالكة نفسها حين أجاب: «أخبريه فقط بأننا، نتيجة إهماله، كدنا نقع في مشكلة».

اضطرت مالون إلى الضحك، وقد ظنت أنّ هذا ما أراده هاريس منها. ولكن في اللحظة التالية، فارقتها كل رغبة في الضحك لأنه كان يتناول حقيبته ومفاتيح سيارته.

ـ انتبه أثناء القيادة.

دفعتها كبرياؤها إلى أن تودعه بهذه الكلمات، فكان جوابه أن عانقها بسرعة، مودعاً، ثم خرج.

لم تعرف مالون كم بقيت واقفة بعد ذهابه ويدها على قلبها الذي راح يتخبّط بين ضلوعها. أدركت أنها، وهي التي لم يحدث أن تشوّقت لصحبة أحد ما، شعرت بالآن بالوحدة.

تحمّلت عبء النهار، وصورة هاريس لا تكاد تغيب عن ذهنها. أليس من المفترض أن يكون الحب مصدر بهجة؟ افترضت أن هذا الكلام صحيح إذا كان الحب متبادلاً. لقد سخر القدر منها.

يوم الاثنين، أصلح السباك الأعطال في الغرفتين. وأطل يوم الثلاثاء فجاء مهندس ليصل خط الهاتف فشكل ذلك مفاجأة حسنة. لم يكن هاريس

قد ذكر شيئاً عن تقدمه بطلب من الشركة.

استغلت مالون الهاتف تلك الليلة للإتصال بأمها وإعطائها رقم الهاتف مستمتعة بحديث طويل معها. كانت أمها سعيدة للغاية، فأثلج ذلك قلب مالون للمرة الأولى منذ وفاة والدها.

مرت الأيام التالية، ومع حلول الجمعة، شعرت مالون بمزيج من الاضطراب والتوقع. جاء هاريس يوم الجمعة الماضية، وربما سيأتي هذا الأسبوع أيضاً.

وذهبت إلى سريرها، تلك الليلة، شاعرة بخيبة أمل، فهو لم يتصل بها. وأتى السبت مشرقاً ولازم مالون الشعور نفسه تقريباً. ربما يأتي هاريس اليوم!

لكنه لم يأت أيضاً، ولا في اليوم التالي، وبقي الهاتف صامتاً طوال العطلة. عانت مالون كثيراً من آلام الشوق لرؤيته، إذ سكن تفكيرها باستمرار.

استحال الطقس المشمس إلى موجة حرارة، وابتدأت مالون تتطلع إلى العطلة، آملة أن يبقى الطقس لدى مجيء هاريس جيداً. وتملكها الشك في قضائه وقتاً طويلاً، خارج البيت.

عندما خرج العمال يوم الاثنين، أحضرت المكنسة وأخذت تنظف غرفة الاستقبال لتزيل عنها الغبار. ودخلت غرفة الجلوس باكراً صباح الثلاثاء، لتطمئن إلى مظهر الغرفة، عندما سمعت رنين الهاتف لأول مرة، فقفزت من مكانها.

ذهبت لتجيب وقلبها يخفق، رغم أنها حدثت نفسها بأن المتصل قد يكون أمها. أجابت بصوت هادىء، فأخذ قلبها يخفق بعنف حين عرفت صوت المتكلم.

سألها هاريس بهدوء: «هل تسير الأمور كما يجب؟».

ـ لم تحصل مشاكل.

أجابت باسمة.. لم تستطع أن تمنع نفسها من ذلك.

ـ هذا حسن.

وأحست أنه على وشك إنهاء المكالمة، فتلهفت إلى معرفة ما إذا كان سيحضر في العطلة القادمة، لكنها لم تستطع.

ـ كيف حال الطقس عندك؟

أتراها ألقت هذا السؤال؟ وهل هي متشوّقة لإبقائه على الخط إلى حد أن تسأله عن الجوّ؟ وأجاب: «أظنكم تعانون من موجة الحر التي نعاني منها هنا».

تكلفت المرح وهي تخبره: «أنجز النجارون عملهم بشكل جميل جداً، أتريد أن تتحدث إلى بوب؟ أظنه قريباً من هنا، يمكنني أن أذهب وأخبره..».

ـ لا حاجة لذلك، ما دمت تنفين وجود مشاكل وأنا واثق من أن هذا هو الواقع.

أجاب بذلك ثم أقفل الخط. وضعت مولان السماعة وقد اعترتها المشاعر المربكة إلى حد أنها شعرت، بأن عليها أن تكون وحدها. فصعدت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها.

لم تسأله إن كان سيحضر في العطلة الأسبوعية؟ أو متى سيحضر؟ من المؤكد أنه سؤال طبيعي.

عندما استعادت تمالكها لنفسها، خرجت من المنزل لتتمشى، شاعرة بأن حبها لهاريس جعلها ضعيفة. إنها ضعيفة ولكن كرامتها منعتها من إظهار أي دليل على شعورها نحوه ولا ومضة سرور حتى. وما كان ذات يوم طبيعياً أصبح الآن موضع حذر لئلا تفضح نفسها.

عادت إلى المنزل، كانت تأمل في أن يحسّن التنزه مزاجها، لكنه لم يفعل. ولكن عندما نظرت من نافذة المطبخ وقت الغداء ورأت سيارة هاريس تتوقف لتوّها، ارتفعت معنوياتها.

احمر وجهها لفيض مشاعرها، وشعرت بالسرور لأن وصوله إلى المطبخ سيستغرق دقيقة أو اثنتين يمكنها، في أثناءهما، أن تتمالك نفسها.

كيف ستحييه؟ مرحباً أيها الغريب؟ لا. اليوم ليس الجمعة أو السبت، أليس كذلك؟ لا.

تبدّدت أفكارها في الهواء عندما دخل هاريس حاملاً سترته بيده، فسألته وقلبها يخفق بقوة، لشدة ما تحبه: «ماذا تفعل هنا؟ لا أقول إنه لا يمكنك الحضور فأنت صاحب البيت».

قالتها بمرح وأطلقت ضحكة صغيرة.

لم يضحك هاريس، ولا ابتسم حتى وهو يقول: «لديّ مشكلة أود أن أناقشها معك».

تملّكها الحذر على الفور. لقد أدركت أنه سيطلب منها الرحيل. لكنها لا تريد أن ترحل، ليس الآن! ليس وهي تعلم أنها تحبه. هل هذا هو الأمر؟ هل أحس بحبها له؟ وهل لهذا قدم شخصياً ليطلب منها الرحيل؟ وسرعان ما استجمعت كبرياءها، ربما يظن أنها تحبه، لكنها ستحرص على أن تجعله يشك تماماً في ذلك.

ـ كنت على وشك أن أعد لنفسي شطيرة وفنجان القهوة، هل أنت مستعجل؟

إنها هنا لأداء وظيفة مؤقتة على كل حال. ستخبره بذلك. هل ينبغي أن تخبره أولاً أنها راحلة قبل أن يطلب منها الرحيل؟ ربما عليها أن تفعل ذلك.

ـ لا بأس بشطيرة.

أجابها باتزان، فأخرجت الخبز والزبدة والجبن واللحم.. ثم أعادت التفكير. إنها غارقة في حبه، ولهذا، عليها ألاّ تتعجل. ربما لم يأت ليأمرها بالرحيل.

ربما.. ولكن لماذا..؟

أعدت طبقاً من الشطائر لهما، لكنها سرعان ما فقدت شهيتها.

عندما جلسا إلى المائدة، سألته: «والآن، ما هي المشكلة؟ أرجو ألاّ تكون خطيرة».

وضع شطيرة في صحنه ثم نظر إليها: «إنها تتعلق بأختي فاي».

تملكها الارتياح. لا يبدو أن هاريس سيطلب منها الرحيل. فردت بصوت هادىء: «أختك؟».

ـ اتصلت بي فاي بعد أن اتصلت بك بقليل. وبعد ذلك، خطر في بالي أنها قد تزورك إذا حدث ومرّت في الجوار.

لم تفهم مالون ما يعنيه. من الواضح أن فاي ستتجه إلى بيتها «آلورا لودج». ولكن هل يعني كلامه أنه لا يريد أن تعلم أخته بوجود مالون في «هاركورت هاوس»؟ أتراه، فعلاً، يطلب منها الرحيل؟

جعلها عدم شعورها بالأمان تهاجمه بقولها: «أما كان بإمكانك أن تعود فتتصل بي وتحدّثني بالأمر؟».

فنظر إليها بجد: «الأمر ليس بهذه البساطة».

ما هو الأمر يا ترى؟ وبادلته التحديق، وإذا بشيء يخطر في بالها فجأة: «ولماذا تأتي أختك إلى هنا لتراني؟».

وتملكها الانزعاج فجأة فهتفت بسخط شديد: «تريدني أن أخبرها أي فاسق هو زوجها، هذا هو الأمر، أليس كذلك؟ حسناً، طبعاً لن أفعل! وشكراً لفكرتك السامية عني».

وإذا بمشاعرها تهمد وهو يجيب: «ولأن فكرتي عنك سامية للغاية فضلت أن أترك عملي وآتي إليك بنفسي بدلاً من الاتصال بك».

أواه يا هاريس! إن فكرته عنها سامية للغاية! و.. وحاولت أن تفكر بوضوح.

ـ إذن.. ما.. ما هي.. المشكلة؟

ـ المشكلة هي أن أختي، رغم ذكائها، ما زالت مغرمة بذلك الحقير

الذي تزوجته. حاولت أن أجعلها ترى الحقيقة، لكن الأمر أفلح فقط في غرس بذور العداوة بيننا. ولذا، اضطررت حالياً إلى اتخاذ موقف المتفرج، العاجز عن القيام بشيء سوى أن أساعدها عندما تكون بحاجة إلى ذلك.

تكهنت مالون أن موقف المتفرج هو ضد طبيعته. وشعرت بإعجاب كبير نحوه لأنه يقوم بذلك رغم حبه لأخته.

ـ وهل.. تشعر أنها بحاجة إلى المساعدة الآن؟

ـ المشكلة هي أن فاي، التي تأمل في إنقاذ زواجها، سمعت بأن لدى زوجها خليلة. وكانت على وشك الانهيار عندما اتصلت بي هذا الصباح وهي تريد أن تعلم لما خذلتها أنا بوضعي خليلة زوجها في بيتي..

وسكت فجأة، لكنه كان ينظر مباشرة في عيني مالون الجادتين وهو ينهي كلامه: «هنا».

فهتفت مالون وهي تفتح فمها ذاهلة: «أنا؟ هل أخبرها هو.. أنني كنت خليلته؟».

ـ أمر لا يصدّق، أليس كذلك؟

فشهقت: «يا له من حيوان».

ثم تذكرت آخر مرة رأته فيها، فانفجرت تقول: «إنه ذنبي!».

ـ أنت فعلت ذلك؟

فاندفعت تقول: «إنه ينتقم مني. لقد رأيته..».

فقاطعها بحدة بالغة: «متى؟ متى رأيته؟ هل جاء إلى هنا مرة أخرى؟».

ـ لا.. كان ذلك.. السبت الماضي.

ـ بعد أن قلت له بألاّ يأتي إلى هنا مرة أخرى؟

فأومأت: «كنت أتمشى، وتحديته لأثبت لنفسي أنني لست خائفة».

كان صوته أهدأ، حين سألها بلطف: «بماذا شعرت حين رأيته؟».

ابتسمت وردت: «لم أخف بل غضبت، وقلت له إنه بغيض، وإنه إذا اقترب مني مرة أخرى سأشكوه إلى الشرطة، وإنني لا أنزل من قدري

بالحديث إلى أمثاله».

ـ هل قلت ذلك؟

سألها هاريس وقد خيّل إليها أنها ترى في عينيه إعجاباً. لكن هذا التعبير تغيّر وهو يسألها: «كيف كان نومك؟».

بما أن هاريس يحتل دوماً ذهنها لأنها تحبه، كان جوابها: «منذ ذلك الحين، لم يعاودني أي كابوس. لكن لنعد إلى الموضوع الأساسي، إذا زارتني أختك، فسأخبرها أنني لست خليلة زوجها...».

فقاطعها: «لست مضطرة لذلك».

ولكن الغريب أنه سكت لحظة ثم عاد يقول: «لقد سبق وأقنعتها بذلك».

في الأحوال العادية، كانت مالون ستتقبّل ذلك، أو ربما ستعلّق على قوة تأثيره على أخته. لكنّ شيئاً ما.. ربما في طريقة توقفه عن الكلام.. في إحساسها المرهف نحوه.. جعلها تسأله: «و.. هل صدقتك؟ هكذا بكل بساطة؟».

كانا يتحدثان عن امرأة مغرمة بزوجها. هل ستصدقه فاي من دون برهان، خصوصاً وأن تلك الخليلة المزعومة تسكن على بعد أميال قليلة منه؟

وسألته: «كيف؟ كيف أقنعتها؟».

أدركت بالغريزة أن جوابه لن يعجبها. وكان إحساسها صادقاً، رغم تمهيده له بقوله: «كما سبق وقلت، كانت فاي على وشك الإصابة بنوبة هستيرية. الطريقة الوحيدة التي استطعت التفكير فيها لتهدئتها هو أن أقول لها إنك لست عشيقته.. بل عشيقتي أنا».

حدّقت مالون فيه مذهولة: «عشيقة؟».

ثم انفجرت به: «هل قلت عشيقة؟ هل أخبرت أختك أنني...».

لم تستطع أن تصدق ذلك، عادت تسأله والشرر يتطاير من عينيها: «بماذا حدثتها لكي تصدق؟».

قابل هاريس نظراتها بجمود، لكنه أجاب: «حاولت أن ألتزم بالحقيقة قدر الإمكان».

فانفجرت بعداء: «آه، هذا واضح».

ـ كنت مخطئاً، وأنا أعلم، لكنها كانت مجروحة. وقد اعتدت أنا على التخفيف من آلامها لأجعلها تشعر بتحسن عندما تكون على شفير الانهيار. أظنها عادة متأصلة في نفسي.

شعرت مالون بأنها ابتدأت تلين، فقوّت نفسها. إنه فاحش! فما أخبر به أخته هو فحش وشناعة فسألته بحدة: «وهكذا؟».

ـ أخبرتها أنك عملت مع فيليبس بضعة أسابيع عندما كان خارج البلاد معظم الوقت، وأنك تركته عندما عاد إلى البيت وحاول أن يغريك.

ـ حسناً، تابع كلامك.

تكلّمت بجفاء فتابع: «قلت لها إنني كنت ماراً بسيارتي، وعندما وجدتك عرضت أن أوصلك إلى المحطة، ولكن قبل أن نصل إلى هناك عرضت عليك العمل عندي هنا.. وهكذا.. سارت الأمور بيننا».

ـ وكأنني مومس أخرج مع أي كان..

فقاطعها بحدة: «لست كذلك!».

ـ ليس تماماً!

صرخت به ثم منعها الغليان من أن تحافظ على هدوئها، فاندفعت واقفة.. وكذلك هو. وعندما تواجها، انفجرت قائلة: «إذن، أدركت، بعد اتصالك بي، أن أختك قد تأتي إلى المنطقة لكي تتوصل إلى حل مع زوجها، وقد يخطر في بالها أن تزورني. وبما أنك لن تستطيع احتمال الأمر، سارعت إلى المجيء...».

ـ أردت أن أخبرك بالأمر شخصياً.

ـ وفعلت!

قالت هذا بحدة، ومنعها الغضب من متابعة الحديث، فأعلنت

غاضبة: «أنا ذاهبة لأتمشى».

وعند الباب نظرت إليه من فوق كتفها: «إذا كان لديك أدنى لياقة، فآمل ألاّ تكون موجوداً عندما أعود!».

وأخذت تسير بسرعة، ولكن حرارة الجو أرغمتها بعد خمس دقائق على التمهّل. لا تزال غاضبة من هاريس، لماذا لم يخبر أخته بالحقيقة؟ حسناً، كانت فاي ثائرة الأعصاب. ولكن من يظن أن هاريس كويليان سيخبر أخته أنها خليلته؟ حتى لو كانت أخته مجروحة الفؤاد وبحاجة ماسة إلى معرفة أن خليلة زوجها لا تعيش في بيته؟

إن التفكير في ألم فاي أضعف عزيمة مالون. مسكينة فاي، كانت تأمل أن تتصالح مع زوجها.. نبذت مالون هذا الضعف من نفسها. أرادت أن تبقى غاضبة، فحتى لو كان هاريس يهتم بأخته، إلا إن هذا لا يعطيه الحق في أن يقول لها أموراً مماثلة لمجرد تهدئتها وليشعرها بالتحسن.

سارت مالون مسافة ميل حين أدركت أنها أخذت تشعر بالهدوء. أخذت تتساءل عما جعلها تغلي غضباً بهذا الشكل؟ صحيح أنها لا تريد أن تكون خليلته، لكن هذا التدبير سيكون اسمياً. فهي تعلم أنها ليست كذلك، وهو يعلم ذلك أيضاً، ولكنها قالت له إنها تأمل عند عودتها أن يكون قد رحل.

حاولت مالون ألاّ ترى الجانب المؤلم، فهذا بيته وبإمكانه أن يأتي ويذهب ساعة يشاء. ومع ذلك لم تطرده هي منه!

استدارت عائدة إلى المنزل وهي غاضبة منه قليلاً. ربما لا تشعر نحوه بأي مودة حالياً، إلا أنها تحب ذلك الرجل القاسي. إذا رحل، فالله وحده يعلم متى سيعود.

كانت في طريقها إلى البيت عندما تجاوزتها سيارة لم تعرفها مالون وعندما وصلت إلى «هاركورت هاوس»، لم تهتم بها كثيراً، فهناك دوماً سيارات باعة تتوقف في هذه الأنحاء. على أيّ حال، سيارة واحدة يهمها أن تراها وهي

موجودة في الباحة.

تنفست الصعداء.. لا بد أن هاريس سمعها قادمة فخرج فجأة من غرفة الاستقبال.

كانت تنوي أن تذهب إلى المطبخ دون أيّ كلمة، عندما ناداها هاريس.

ـ مسرور لعودتك، فلدينا زائرة.

توقفت مالون عن السير. تلك السيارة الجميلة المتوقفة في طريق المنزل، جدالها مع هاريس إضافة إلى الزائرة.. ابتدأ كل ذلك يعني لها شيئاً.

ـ ما أجمل هذا!

قالت بلهجة ساخرة، غير واثقة من مكان فاي.. ولكن إذا كان هاريس منتظراً ابتسامة، فعليه أن ينتظر طويلاً. تقدمت إليه، وسرّها أنه كان أذكى من أن يضع ذراعه حول كتفيها وهو يرافقها إلى الداخل.

وجدت امرأة طويلة سمراء تصغر هاريس بنحو عشر سنوات، تنظر إلى الباب عندما دخلا: «لا بد أنك مالون».

ورغم أنها حيّتها باسمة، إلا أن مالون رأتها حزينة ضعيفة. ما لم تكن مخطئة، فإن الاحمرار في عينيها يشير إلى أنها كانت تبكي.

قدمهما هاريس إلى بعضهما البعض، فابتسمت لها مالون ببشاشة، قائلة: «مرحباً. آسفة لأنني لم أكن هنا لحظة وصولك. كنت أتنزه قليلاً».

فقال هاريس: «بينما كنت أنا أتفقد المبنى».

ـ كان عليّ أن أخبرك بأنني سأمر.

قالت فاي معتذرة لمالون.. وترددت قليلاً ثم أضافت: «ربما تكهنت بأنني كنت ذاهبة لأرى زوجي».

ـ هذا ما ظننته.

لم تجد مالون فائدة في الادعاء. لكنها لم تشأ أن تستمر أخت هاريس في الكلام عما كان مؤلماً لها للغاية. فسألتها: «هل أكلت شيئاً؟ يمكنني أن أحضر لك...».

فابتسمت فاي: «لا أستطيع أن آكل شيئاً».

ـ ولكن يجب ألاّ تتعجلي بالذهاب، أرجوك.

رأت مالون المرأة بحاجة ماسة إلى جرعة مهدئ للأعصاب.

ـ آه، هذا لطف منك. المكان يوحي بالسكينة والسلام.

فقال هاريس: «يجب أن تمكثي هنا قدر ما تشائين».

ـ هل أنت واثق؟

والتفتت إلى مالون: «في الواقع، أشعر وكأنني شبه محطمة. لدي اجتماع في لندن غداً صباحاً، إلا أنني لا أمانع في أن أرتاح ليلة هنا. هل يناسبك، يا مالون؟ لقد قال هاريس إنه جهز غرفتين صالحتين للسكن رغم قلة أثاثهما وحاجتهما إلى الدهان».

أخذت مالون تفكر بسرعة في إعطائها غرفة هاريس، عندما أجاب عن سؤال أخته: «طبعاً لمَ لا تبقي. ستتمكنان، بذلك، من التعرف إلى بعضكما. أليس كذلك يا مالون؟».

ـ يسرّني جداً أن أنعم بصحبتك.

طمأنتها مالون، مدركة أن لا خيار لها ما دامت فاي تعلم بعملها السابق مع زوجها فيليبس، و(علاقتها) بهاريس. ونظر هاريس إلى ساعته ثم قال: «عليّ أن أعود إلى لندن».

فهتفت أخته معترضة: «آه، لا يمكنك».

سألها مداعباً: «لا يمكنني؟».

ـ لقد جئت لتكون مع مالون، سأشعر بالكدر إذا ما عدت إلى لندن بسببي. يمكنني أن أنام في الغرفة الأخرى، أليس كذلك يا مالون؟ ثم...

وسكتت. بدت المرأة على وشك البكاء مرة أخرى فلم تحتمل مالون الوضع، لأنها رأت أن فاي أحضرت معها حقيبة صغيرة لقضاء ليلة واحدة في «آلورا لودج». فقالت ببشاشة: «يمكنك بكل تأكيد».

ونظرت إلى هاريس، متوقعة منه أن يلحّ برفق، على أن لديه عملاً في

لندن لا يحتمل الإرجاء.

لكنها ذهلت حين سمعته يقول: «لا يمكننا أن ندع فاي يتملكها هذا الشعور، أليس كذلك يا مالون؟ على الأمور المالية في لندن أن تنتظر».

كانت مالون تحدق فيه دون أن تفهم، عندما قالت فاي إن الغرفة لا بدّ غير جاهزة ما داما يجهلان أنها قادمة، وأخذت تصرّ على أن ترتب السرير بنفسها. عندئذ فقط، تبينت مالون أن الغرف الأخرى في المنزل ما زالت غير صالحة للسكن.

كادت تلح على فاي بأن تنام في غرفة الضيوف أي غرفتها، وإذا بها تدرك، بغفلة، أن هناك سريراً واحداً آخر في البيت!

التقت عيناها بعيني هاريس، وأدركت من الطريقة التي بادلها بها النظر، أنه هو أيضاً لم يحسب حساب تقسيم سريرين على ثلاثة أشخاص.

فقالت: «لا يمكن أن أجعلك تقومين بذلك».

وجدت نفسها تجيب بذلك على إصرار فاي على ترتيب سريرها بنفسها، وهي تدرك تماماً أن فاي تظن أنهما ينامان في غرفة واحدة. انتظرت من هاريس أن يتدخل، وعندما لم يفعل، بدأت تغضب. لكن مالون كانت تعلم أن أفضل طريقة لإقناع فاي بأنها ليست خليلة زوجها، هي بجعلها تعتقد أنهما، هي وهاريس، ينامان في سرير واحد، لذا جاهدت لتكبت غضبها وتقول: «بما أنني أتصبب عرقاً لأنني كنت أتنزه، فلا أمانع إذا ذهب أحدكما إلى السوق بدلاً مني».

ردت فاي على الفور: «أنا سأذهب».

ولكن، قبل أن تفكر مالون في ما ستقوله للسيد هاريس كويليان عندما يصبحان بمفردهما، بادر هو إلى الذهاب مع أخته إلى المدينة، قائلاً لمالون: «من الأفضل أن تعطيني قائمة بالمشتريات».

يجب أن تعطيه ضربة على رأسه! كتبت القائمة ثم ناولته إياها. قرأ البند الأول ولوى شفتيه، لأنه كان يتضمن عبارة (أكرهك).

وعندما توجهت فاي نحو الباب، تقدم هاريس من مالون وهمس في أذنها: «أتعدينني بأن تكوني هنا عندما نعود؟».

ارتجفت في داخلها لقبضة يديه القوية وأنفاسه الحارة على خدها، لكنها صرّت على أسنانها وهي تقول له بصوت خافت: «لا تحاول إغرائي بالذهاب».

وعندما تراجع، ابتسمت لفاي تودّعها.

بعد ذهابهما، وقفت للحظة واعترفت بأن الأمر يغريها بالرحيل، لأن ذلك الغول الرهيب كويليان يستحق ذلك. ولكن ليس لديها مكان آخر تذهب إليه إلا إذا أرادت اللجوء إلى أمها وزوجها، كما أنها تحب ذلك الغول الرهيب.

تركت غرفة الجلوس وصعدت إلى غرفتي النوم لتتفحصهما. لم يكن لديها نية في مشاركته الغرفة.. إنها لا تستطيع ذلك. تذكرت تجاوبها معه يوم السبت. لا، مستحيل، إنها لن تفعل! لا تستطيع. إذا عانقها ثانية... كفى! ولماذا سيعانقها؟ تمالكت نفسها وابتدأت مالون تجهيز الغرفتين. لكن، حتى وهي تعمل، كانت تعلم أنها لن تقدم على مشاركته الغرفة. كانت أخته هشة، لكنها تبدو هادئة بشكل مقبول.. حسناً، ليست منهارة الأعصاب كما قال هاريس. ربما كانت كذلك حين اتصلت به هاتفياً. بما أنهما في الخارج الآن، فقد يخبر فاي الحقيقة. ربما سيخبرها أنها مجرد وكيلته ولا شيء أكثر من ذلك.

لكن فاي كانت تتألم، تتألم كثيراً. ما العمل لتقنعها بأنها تلقت منه المساعدة، وأنه لا يأوي خليلة زوجها..؟ ما هي أفضل طريقة لإقناعها بأن..

نقلت مالون أدوات زينتها، مع أشيائها الأخرى، من حمامها وغرفتها إلى حمام وغرفة هاريس، تاركة أشياء في الخزانة والأدراج يمكن تفسير وجودها بأنها وضعتها مؤقتاً بانتظار إتمام تجهيز الغرفتين.

فرشت السريرين بملاءات نظيفة، بينما ازدادت ثقتها بأن هاريس سيتمكن من إعطاء تفسير وجيه لفاي وهما في الخارج. ابتدأ الشك يتسرب إلى نفسها وهي تفكر في أنه إذا حصل الأسوأ واضطرت إلى مشاطرة هاريس غرفته، فيمكنه أن يفرش غطاء السرير على الأرض لينام عليه.

لكنها سرعان ما نبذت هذه الفكرة، فلن يصل الأمر إلى هذا الحد. وبالرغم من أن فاي تعيسة وأن هاريس يبذل جهده في مراعاتها والاهتمام بها، إلا أنّ مالون كانت تزداد ثقة بأنه سيخبرها الحقيقة.

ربما سيضحكون جميعاً للأمر قبل أن يعود إلى لندن. أخذت مالون تفكر في ذلك وهي تستحم. في حمام هاريس، أقفلت الباب عليها. وابتسمت لنفسها لعلمها أن لا ضرورة لقلقها منه. في الواقع، كانت واثقة من أنه لم يعد هناك ما تقلق بشأنه، لذا ستبدأ بإعادة كل شيء إلى غرفتها.

وعندما انتهت من ارتداء ملابس نظيفة، تذكرت أن كيڤين تعوّد أن يأتي إلى المطبخ في مثل هذا الوقت لشرب فنجان شاي.

همّت أن تطلب منه إعداد فنجانه بنفسه، لكنه كان شاباً خدوماً ومستعداً لأخذها بسيارته إلى أي مكان تريده. وهكذا، بدلاً من إعادة حاجياتها إلى غرفتها، نزلت إلى المطبخ لتحضر لكيڤين فنجان شاي.

كان الشاي قد جهز للتو عندما مرت سيارة هاريس أمام نافذة المطبخ، فأعلن كيڤين: «ها قد جاء الرئيس. سآخذ الشاي إلى الخارج ثم أذهب لتفقد الجياد. أتريدين أن أحضر لك شيئاً معي؟».

ـ ليس اليوم.

أجابته بابتسامة، وكانت تصب له فنجان الشاي عندما دخل هاريس وأخته حاملين أكياس التسوق.

نظرت مالون إلى هاريس وفاي، فلم يبدُ عليهما أن الحقيقة انكشفت الآن.. وانتظرت.

قالت لها فاي بابتسامة مصطنعة وهي تناولها باقة جميلة من الأزهار

الصفراء: «قال هاريس إنك تحبين الأزهار».

ـ شكراً، ما أجملها!

هتفت مالون وهي تأخذها منها، وانتظرت... لا شيء بعد: «حضرت الشاي».

ـ هل أحضر حقيبتي أولاً؟

بدا لمالون أن المرأة المسكينة كانت مترددة بشأن قضائها الليل مع زوجها في «آلورا لودج».

وعندما خرجت فاي، سألت مالون هاريس: «هل أخبرتها؟».

ـ أخبرتها بماذا؟

ـ بالحقيقة عن..؟

ـ عن فيليبس؟ عن أن زوجها، الذي سلب عقلها حاول اغتصابك، والله وحده يعلم ما كان سيحصل لو أنك لم تهربي؟ أنت ترين حالتها الآن. ماذا سيحصل لها برأيك لو عرفت؟

تبدّد غضب مالون، وسألت هاريس رافضة الهزيمة: «ألا تظن أن لديها فكرة عما يمكنه أن يفعل؟».

ـ أشكّ في ذلك. لكنها سمعت عنه مؤخراً ما فيه الكفاية. وقد فعلت أنا ما بوسعي.. وعليها الآن أن تغربل كل شيء على مهل.

ـ وهل ستفعل ذلك؟

ـ ستفعل. لديها عقل راجح، وستدرك أنها كانت عمياء بالنسبة إلى فيليبس.

نظر هاريس إلى مالون بجد، ثم تابع يقول: «كدنا، أنا وفاي، نصبح عدوين. لم تستمع إليّ عندما أخبرتها ببعض الحقائق عنه. ومنذ ذلك الحين، اضطررت إلى كبح شعوري إزاءه لأن..».

ـ لأنك تريدها أن تعلم بأنك موجود لمساندتها عندما تدرك أخيراً الحقيقة.

ـ آه، يا مالون.. أنت متفهمة.

تمتم بذلك، فنسيت تماماً لماذا كانت غاضبة منه، وأنها كانت غاضبة منه أصلاً. وأضاف برقة: «في الواقع، بقدر ما تتمتعين خارجياً بجمال رائع، لديك جمال داخلي يقتلني مرة بعد أخرى».

حدقت مالون فيه وقلبها يخفق بسرعة. هل يظنها كذلك حقاً؟ شعرت بركبتيها واهنتين، لكنها سرعان ما أدركت أن فكرة حبّه لها لا تزال بعيدة عنها أميالاً.

إذا كانت لا تريده أن يعلم وقع كلماته عليها، فعليها أن تتظاهر بالحدة: «وأين ستنام الليلة إذن؟».

نظر إليها ما زاد في غيظها، وبدلاً من أن يبدو عليه الهمود، لاح في عينيه الهزل وهو يقول: «مالون... أنت لا تريدينني أن أنام في سيارتي، أليس كذلك؟».

فقالت بأحلى ابتسامة لديها وأعذب صوت: «طبعاً لا».

ثم تبددت تلك الحلاوة وقالت بحدة: «لأنني أفضّل أن تنام في المجارير!».

انفجر ضاحكاً، وفي هذه اللحظة دخلت أخته. نقلت مالون اهتمامها إلى فاي: «غرفتك جاهزة، وسأصعد معك، إذا شئت، بينما يفرغ هاريس أكياس المشتريات».

رغم كل ما حدث، كان العشاء تلك الليلة لذيذاً. وجدت مالون أن فترة العشاء مرت من دون توتر لأنهم، هم الثلاثة، حرصوا على تجنب ذلك.

كانت تعلم أنها تقوم بجهد، فتعاطفها مع فاي جعلها تكبت قلقها لاضطرارها إلى تقاسم غرفة هاريس. لقد فتشت عبثاً عن بديل ووجدت في الواقع الكثير، كأريكة الإستقبال، مفرش السرير أو إحدى الغرف، حتى فكّرت في وضع الغطاء على أرض الحمام.. ونظراً لطول هاريس، لم تستطع

احتمال أن تجعله يعاني من ذلك.

كانت فاي أيضاً تبذل جهدها، فثرثرت ببشاشة، متجاوبة، بوجه مشرق، مع حديث هاريس الحيوي. وإذا غامت عيناها أحياناً في لحظة شرود، وبان عليها تحطم القلب والضعف، فسرعان ما كانت تعود لتمالك نفسها وللتنبه إلى مكانها فتعود إلى بشاشتها وتألقها السابقين.

أما هاريس، فأقرت مالون أن وجوده على المائدة متميز، فهو حاضر الذهن. وهكذا، مع انتهاء العشاء، كانت مالون قد نحّت قلقها جانباً بشكل مؤقت.

عاد ذلك القلق بعد أن انتهى العشاء وأصبحت الأطباق المستعملة في آلة غسل الأواني. انتقل الثلاثة إلى غرفة الاستقبال لمشاهدة برامج التلفزيون، ولكن بدا أن ذهن فاي مشغول عن الشاشة الصغيرة. فقالت وهي تقف: «سأخلد إلى النوم ما لم يكن لديكما مانع، عليّ أن أستيقظ باكراً في الصباح».

فسألتها مالون: «أتريدين شراباً ساخناً تأخذينه معك؟».

ـ لا، أشكرك لذلك.

واغتصبت فاي ابتسامة: «ما دمت سأستيقظ باكراً، سأحضر لكما فنجاني قهوة إلى غرفتكما قبل أن أذهب».

وبينما نوت مالون أن تستيقظ قبل الطيور عند الصباح، تمنت فاي لهما ليلة سعيدة ثم خرجت صاعدة إلى غرفتها.

كانت مالون تعلم أنها لن تستطيع الاستمرار في مراقبة التلفزيون. وبعد خمس دقائق تخلّتْ عن التظاهر بالتركيز على البرنامج، والتفتت إلى هاريس، وإذا بها تجده يراقبها هي وليس التلفزيون.

وقف بصمت ثم أطفأ الجهاز وراح ينظر إليها: «ستكونين بخير معي، يا مالون».

لقد كشف عن قلقها الذي يغلي في داخلها. فانفجرت تقول: «وهل أنا مضطرة إلى ذلك؟ أعني، هل من الضروري أن... أن تشاركني غرفتي؟».

ـ هل لديك بديل آخر؟

أجابها متجاهلاً واقع أنها هي التي تشاركه غرفته التي يشغلها كلما جاء إلى بيته.

ـ يبدو أنك لا تملك حلاً.

أجابته، مدركة أنه بحث مثلها في كل الاحتمالات للعثور على حل لا يكدّر أخته التي عانت بما فيه الكفاية. وقال بحرارة: «كنت مفعمة بالطيبة ويبدو أن اضطرارك لمشاركتي السرير هو المشكلة و...».

فهبت واقفة: «كفى يا هاريس. من قال إنني سأشاركك سريرك؟ يمكنك أن تأخذ غطاء السرير، فقد يساعدك على التخفيف من صلابة الأرض».

شعرت بسرور وهي تقول له هذا الكلام. لكن شعورها الضئيل بالانتصار لم يرَ النور. أقل ما كانت تنتظره منه هو تكشيرة، ولكن ما حصلت عليه هو ضحكة: «يا للفتاة، أنت قاسية القلب».

ولكن، عندما اقترب منها ونظر في عينيها الجميلتين لم يكن يبتسم وهو يطمئنها جاداً: «أنت في أمان معي، يا مالون. أنا لست مثل فيليبس، أو صديقك السابق، أو أي رجل آخر من معارفك».

كانت تعلم ذلك ولكنها قالت بحدة: «ما زال عليك أن تنام على الأرض!».

ثم رأت أنه من الأفضل أن تتبع فاي وتصعد إلى غرفتها، فألقت عليه تحية المساء ثم خرجت بسرعة من دون أن تسمع جوابه.

في غرفته، التي كانت هذه الليلة غرفتها، استحمت بسرعة وارتدت قميص النوم. ألقت بغطاء السرير على الأرض، ولمّا رأت أنه تكوّم بغير انتظام، حثها ضميرها على أن تتقدم وتبسطه على الأرض فمسّدته بيديها. كانت الأرض بصلابة الصخر! حتى عندما وضعت تحته بساطاً، لم يتغير الوضع كثيراً. قسّت قلبها الرقيق فهو لن ينام معها في السرير نفسه.

بعد أن وضعت وسادة على الأرض، صعدت إلى السرير، لتتغطى بملاءة واحدة في تلك الليلة الحارة. في الواحدة صباحاً، كانت مستيقظة لتتأكد من أن هاريس لن يشاركها السرير، ولكنه لم يكن قد حضر.

عندما ابتدأت تعتقد أنه قرر أن ينام على الأريكة في غرفة الاستقبال، ليخبر فاي بعدها أنهما تخاصما أو ما شابه.. تناهى إليها صوت هاريس في الغرفة.

كان ضوء القمر يتألق في الغرفة، ومع هذا، أغمضت مالون عينيها مركزة على أن يبدو تنفسها منتظماً. كانت شديدة الإحساس بتحركاته الرشيقة في أنحاء الغرفة، وسُرّت عندما تبينت أنه رأى (فراشه الأرضي) دون أن يصطدم بشيء.

ـ تصبحين على خير.

قال هذا ليعلمها أنه يدرك أنها مستيقظة، فلم تجب، لكنها نامت والابتسامة على وجهها.

استيقظت شاعرة بالبرد. نظرت إلى الساعة فرأت أنها الثالثة وعشر دقائق. نظرت إلى مكان هاريس. كانت تشعر بالبرد.. وهو لديه الغطاء. سمعته يتململ، وتكهنت بأن الأرض أصبحت أكثر صلابة.

بعد ذلك بعشر دقائق، راح يتململ، فأدركت أنه لم يكن نائماً. بانت قريبة من التجمد. وتساءلت إن كان هو أيضاً يشعر بالبرد.

ـ أعطني وسادتك.

تكلمت بهدوء خوفاً من أن يكون نائماً. ولكن، بعد لحظة استقرت وسادته قربها. نزلت من السرير ثم وضعت الوسادة في الناحية السفلى من السرير، ونامت تحت الملاءة.

ابتلعت ريقها، لقد خانتها شجاعتها، ثم ارتجفت وقرر عقلها أن الأمر كله زيف وكذب... فهي تثق به تماماً. وقالت بصوت منخفض كيلا توقظ فاي المسكينة التي قد تكون نائمة: «ضع وسادتك في أسفل السرير إذا شئت

أن تتشارك الغطاء».

سمعته يتحرك، ثم وضع الغطاء فوقها. وعندما أوشكت أن تنير رأيها، حذرها هاريس بصوت متوعد: «إذا وضعت علي إصبعاً واحداً، يا مالون، فسأقيم البيت وأقعده بالصراخ!».

ماذا يمكنها أن تفعل؟ خنقت ضحكتها وقالت بصوت كالفحيح: «فوق الملاءة».

ـ أعتذر لسيادتك.

وامتثل مطيعاً.

إنها تحبه. أخذ شعورها بالبرد يخف، فنامت. واستيقظت مجفلة لتجد أن الفجر قد بزغ وأن شيئين متزامنين قد أيقظاها. الأول هو صوت قرقعة فناجين والثاني شعورها بهاريس يدخل تحت الملاءة.. وليس أسفل السرير حيث ينبغي أن يكون.

ـ إنزل...

وسرعان ما غطت يده فمها لتسكتها. أخذت تتلوّى بعنف لتبتعد عنه، وهمس بسرعة: «فاي عند الباب ومعها صينية الشاي».

تأوهت ساخطة بعجز بينما أبعد يده. لكنها، لم تعتد أن يراها أحد في الفراش مع رجل، لذا دست رأسها تحت الغطاء عندما دقت فاي الباب بلطف ودخلت.

ـ أنا نادلة سيئة.

قالت فاي ضاحكة تعتذر، لكن مالون لم تسمع جوابه.. فقد تحوّل انتباهها فجأة إلى مكان آخر عندما وضعت يدها على صدره وكأنها تدفعه عنها.

ـ هل ستكونين على ما يرام؟

سمعته يسأل أخته، لكن مالون لم تسمع ردّ فاي هذه المرة. ولسبب ما، وجدت أصابعها تحتك بصدره. وإذا بها تشعر برغبة عنيفة في أن تدنو منه

ليأخذها بين ذراعيه. لكنها لن تفعل هذا، خصوصاً أن فاي في الغرفة.

بدا الأمر وكأن فكرة شيطانية قد استحوذت على مالون. على كل حال، لم يكن لها يد في هذا الوضع.

كانت مستغرقة في أحلامها فصدرت عنها شهقة عندما انكشف الغطاء عن رأسها فجأة، وسمعت صوت هاريس يقول بهدوء: «ماذا تفعلين؟».

وانتفى ذلك الشعور الشيطاني الذي تملكها، فسألته وهي ترتعش: «أين.. أين فاي؟».

ـ أصبحت الآن في طريقها إلى لندن.

ـ آه، آ.. آسفة.

كان هاريس مستلقياً يحدّق إليها فقال وكأنه قرأ أفكارها: «وما هو شعورك لو تحرّشت أنا بك؟».

وعندما التهب وجهها وأخذ نبضها يتسارع، قال معتذراً: «آسف. لم أستطع مقاومة ذلك. من الأفضل أن ينهض أحدنا».

قفز الاثنان من السرير في الوقت نفسه.. فاصطدما ببعضهما.

صرخت لكنها لم تكن صرخة ذعر، رغم أنها افترضت أنه حسب ذلك لأن هاريس أخذ يهدئها قائلاً: «هششش... أنت بخير».

أخذ يبتعد عنها فرفعت مالون نظرها إليه وإذا بشعور غريب يتملكها. فقالت له صادقة: «أنا لست قلقة».

ـ أنت رائعة.

قالها باسماً ثم تراجع قليلاً. وعندما نوت التراجع هي أيضاً، كان الأوان قد فات.

كان عناقاً مختصراً. وتراجع الاثنان، وهما يحدقان في بعضهما البعض. ولم تشعر بنفسها إلا وهي تتقدم نحوه، وإذا بها بين ذراعيه حيث لطالما تمنت أن تكون. لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تحيطه بذراعيها، وعندما احتضنها، ازدادت اقتراباً منه، وشعرت به يدفن رأسه في عنقها، وشعرها.

كانت تحبه، والحب يملأها بالأشواق وهي تلامس بيديها الرقيقتين، كتفيه العريضتين. عانقها مرة أخرى، وهو يتمتم: «أنت رقيقة للغاية».

وتملكتها البهجة لكلماته ولقربه منها.

وعندما تراجع لينظر في عينيها، لم تستطع إلا أن تبتسم.

آه، يا حبيبي... فكرت في ذلك والبهجة تغمرها.

عندما قبل دعوتها الصامتة وانحنى ليعانقها مرة أخرى، شعرت بيديه تضمانها بقوة.

تأوهت مبتهجة، وعانقته وجذبته إليها. بات عناقه أكثر عنفاً. شعرت بيديه تلامسان شعرها فابتسمت وقلبها يخفق.. إنها تحبه وهذا كل ما يهم.

عندئذ، شدّها إلى صدره وهو يتمتم، ملامساً ملامح وجهها: «يا حلوتي مالون».

شعرت ببهجة فائقة وتسارعت خفقات قلبها. أرادت أن تعبّر عن حبها، فهي تحبه كثيراً وقد ازداد حبها له مع الأيام.

ـ هاريس.

نطقت باسمه بصوت أجش، شاعرة بالخجل فجأة.

ـ مالون؟

استجاب للسؤال الصامت في صوتها.

ـ أنا..

ثم ابتسمت وهي تقول: «أظنني بحاجة إلى بعض الوقت».

وعلى الفور، تمنت لو أنها لم تقل هذا. لأن هاريس نظر في عينيها، وإلى شعرها الأشقر وخصلاته الكثة المحيطة بوجهها، وإذا به يجمد فجأة، ويحوّل نظراته عنها، متأوهاً بلهجة معذبة.

سألته بارتباك بالغ: «ما الذي قلته لك؟».

لكن هاريس تركها، دافناً وجهه بين يديه، وهو يتأوه: «قلت إنك ستكونين معي آمنة».

لكنها لم تشأ الأمان: «هذا..».

ـ مالون، لا تتكلمي.. فقط أدّي لي خدمة، وابتعدي عني.. الآن.

قال بصوت منخفض وهو يصر على أسنانه.

ـ أتريدني أن أخرج..

ـ الآن!

كرر ذلك بإلحاح، لكنها لم تشأ أن تخرج.

واتضحت لها الحقيقة.. الحقيقة الباردة، التي لم تشأ أن تواجهها.. فهاريس لا يحبها. وهو لم يتظاهر قط بحبها، لأن كل الحب كان من جهتها!

عاد يتوسل إليها: «أرجوك، يا مالون. اذهبي الآن!».

جذبت مالون نفساً مرتجفاً فهي لا تريد أن تذهب، لكن هاريس يريدها أن تذهب. إنه لا يحبها. جرّت نفسها بعيداً عنه وهي تقول بصوت أبح: «اعتبر الأمر قد انتهى».

ثم هربت. دخلت غرفتها ورأسها يدور. كانت تعلم أن بإمكانها أن تثق به، ولكن ما هزها في الأعماق، أن أحداً لم يخبرها أنّ عليها ألاّ تثق بنفسها!

* * *

٧ ـ العذاب إذا ابتسم

كانت تلك الجملة تهز كيانها وهي تستحم، محاولة أن تتمالك اتزانها. (بإمكانها أن تثق به ولكن ليس بإمكانها أن تثق بنفسها) آه يا هاريس... هاريس، ماذا فعلت؟.

كانت مالون تحاول أن تتماسك، بعد أن أنهت حمامها وارتدت ثيابها، وأصبح عليها أن تواجه الحقيقة البغيضة... لقد حان وقت الرحيل، ولكنها لم تعد تريد أن ترحل.

كانت تعلم أنها كانت في حالة سيئة، لدى قدومها إلى هذا المنزل... ويبدو أن رولاند فيليبس تعوّد تحطيم النساء.. لكنها الآن بخير، وعليها أن تشكر هاريس لذلك. لقد اخترع عملاً لتلك التعيسة الممرغة بالأوحال التي رآها تسير تحت المطر المنهمر، وابتدأت معه رحلة علاجها.

حسناً، لقد جعلت «هاركورت هاوس» مكاناً صالحاً للعيش فيه. لكن بقاءها هنا ليس ضرورياً، فإذا حضر الأثاث أو أي شيء آخر، هناك دوماً العمال الذين يمكنهم أن يتسلموا المهمة. غادرت مالون غرفتها بقلب حزين بعد أن تأخرت فيها قدر الإمكان. تملّكتها الكثير من المشاعر المختلطة بالنسبة إلى لقاء هاريس مرة أخرى. وبعد ذلك، يمكنها أن ترحل فلا تراه ثانية، لكنها متلهفة إلى رؤيته الآن ولو مرة واحدة.

تملكها الذعر من أن يكون هاريس قد رحل، غير أنها لم تسمع سيارته! فأسرعت تهبط السلم إلى المطبخ. كانت سيارته في الخارج.. وكذلك هو. رباه، ما زال الوقت مبكراً، لكنه على وشك الرحيل.

ازدردت مالون ريقها بصعوبة. إنها متلهفة إلى الخروج لرؤيته. بإمكانها أن تخبره بأنها راحلة. لكنها شعرت فجأة بأنها مشلولة، لأنه كان عائداً إلى الداخل.

شعرت بلهفة إلى الاختباء ولكنها تتوق للاتصال به. عندما دخل المطبخ كانت ملامحه رزينة. وعندما نظر إليها، ابتسم فجأة وسألها: «هل أنت على ما يرام يا مالون؟».

فكرت بأنها محطمة تماماً، لكنها أجابت ببشاشة: «بأتم خير».

واعتراها اضطراب بالغ، حتى قبل أن يتابع هاريس حديثه: «أنت تعلمين أن... ترتيب البارحة لم يكن مفروضاً به أن ينتهي على هذا الشكل...».

وسكت فجأة، وبدا لها أن هاريس الواثق عادة من كل شيء، بات مضطراً للتفتيش عن الكلمات المناسبة ثم قال فجأة وقد تلاشت ابتسامته: «هل آذيتك؟».

أواه، يا هاريس! رق قلبها لحساسيته المفرطة، ثم قالت تطمئنه: «ولا مثقال ذرة! ما عدا..».

ـ ما عدا ماذا؟

وأخذت عيناه تتفحصان وجهها بسرعة.

ـ عدا عن أنك أعدت إيماني بالرجال.

قالت هذا شاعرة بأنها مدينة له، فهتف بدهشة: «أنا فعلت هذا؟».

لم تشأ أن تذكر الغزل الذي دار بينهما. وفي الواقع، لو أنها سُئلت، لأجابت بأنها ستهرب أميالاً بدلاً من القيام بذلك. لكنها كانت تعرف حساسية هاريس، وبدا لها، حينئذ، أنه كان يلوم نفسه لما حدث بينما هي

تعلم جيداً أن تماديها معه عاد عليها بالنفع.

تنفست بعمق لتشجع نفسها، ثم قالت له بصراحة: «أنت علمتني هذا الصباح أن الرجال ليسوا مثل زوج أمي وابنه أو حتى كيت مورغان أو رولاند فيليبس و. . .».

ـ آه يا مالون، هل يعني ذلك أنك تثقين بي حقاً؟

ـ طبعاً.

أجابت دون تردد ثم ابتسمت، ولكن رغم صراحتها معه، لم تخبره بالحقيقة التي اكتشفتها. . . وهي أنها لم تعد تثق بنفسها. ثم قالت مقرّة: «الذنب ذنبي رغم أنني كنت أنوي أن أستيقظ منتعشة باكراً».

ـ وكذلك أنا. يقع اللوم إذن على الساعات الأرقة التي سبقت ذلك، فلولا قرقعة فناجين الشاي، لكنت نائماً حتى الآن. لذا، لا يمكنني أن أعبر لك عن مبلغ ندمي لأنني. . تجاوزت الحد.

أرادت أن تقول شيئاً مرحاً، ولكن الكلمات التصقت في حلقها، وهكذا جذبت نفساً عميقاً لتخبره بما تريده: «هاريس، أنا. . .».

لم تقل أكثر من ذلك لأنه، كما لو أنه تكهن بما تحاول أن تقول، قاطعها: «وهل هذا يهم؟».

ـ يهم؟

ـ أن تفكري في أن تتركيني؟

آه، هاريس! كانت تعلم أنها ضعيفة. حتى وهي تعلم أنه لم يكن يسأل عن هجرها له بل عن تركها الخدمة. كانت مالون تصغي إلى قلبها وليس إلى عقلها.

فأجابته بمرح: «أي نوع من الفتيات تعتبرني؟».

ـ هل ستبقين؟

ـ طبعاً.

بدا عليه الارتياح: «جيد».

بدا وكأنه سيتقدم ليقبل وجنتها، لكنه غير رأيه وقال: «من الأفضل أن أنصرف».

ومنحها ابتسامة حارة ثم استدار.

وعندما خرج، تهالكت على كرسي المطبخ. كانت ضعيفة حزينة، كان عليها أن تخبره بأنها لن تبقى هنا، لكنها تحبه، ويبدو أن ذلك جردها من توازنها. على أي حال، لم تكن هذه الوظيفة دائمة. من المؤكد أنها لن تكون بهذا الضعف عندما سيكون عليها أن تواجه ما تتجنب فعله اليوم.

وضعت إبريق الماء الساخن على النار لكي تعد الشاي عندما يأتي بوب، لكن أفكارها كانت بعيدة، بل مشغولة بالتفكير في هاريس الذي طبع قبلة على خدها، عندما غادر المنزل سابقاً، فيما حاول هذه المرة، أن يطمئنها إلى عدم وجود ما تخافه فلم يقترب منها.

أمضت مالون اليومين التاليين مدركة أن هاريس يحتل أفكارها طوال الوقت. وهو أول ما تفكر فيه عندما تستيقظ صباحاً، وآخر ما تفكر فيه ليلاً.

كان هاريس يحتل ذهنها، حتى وهي تتحدث مع العمال.

حدثت نفسها مرات لا تحصى بأنه أمر سيء، وأنه لا ينبغي لها أن تفكر فيه، بل عليها البحث عن عمل وعن مسكن عندما تغادر منزله.

المشكلة هي أنها لا تستطيع أن تبحث عن وظيفة. لم يكن لديها فكرة عما تريده سوى الإقامة في مكان قرب هاريس بقية حياتها.

تساءلت عما إذا سيحضر في العطلة القادمة، وتدربت على تأدية دور المودة معه عندما تراه مرة أخرى. يجب ألاّ يعانقها مرة أخرى وإلا ستضيع. ولكنه لم يظهر لهفة إلى ذلك قبل أن يرحل نهار الأربعاء الماضي.

نهضت من سريرها يوم السبت، مصممة على ألاّ تجهد نفسها في الإنصات إلى هدير سيارته كما فعلت أمس. وفي العاشرة، خرجت لتتمشى. ولكنها سرعان ما عادت. . قد يصل هاريس وهي خارج البيت!

لم يكن قد وصل بعد.. في الواقع لم يحضر أبداً. أوت إلى سريرها في تلك الليلة بعد أن عنّفت نفسها بحدة.

استيقظت مالون في الصباح فاستحمت وارتدت ثيابها ثم هبطت السلم إلى الأسفل لتبدأ نهارها، نابذة هاريس كويليان بحزم من أفكارها. لديها عمل أفضل من أن تدور في أرجاء المكان تفكر برجل لا يزعج نفسه بالاتصال ليخبرها أنه لن يحضر.

عندئذ، صدمها استنتاجها فهي ليست سوى أجيرة. لمَ يطلعها هاريس على برنامجه للعطلة الأسبوعية؟

وأقفلت مالون الباب باشمئزاز ثم خرجت لتتمشى مرة أخرى.

قررت أنها لن تسرع اليوم في العودة، كما فعلت أمس. وتجاهلت السير في الطريق، مصممة على التنزه في الحقول.

وبعد ساعتين، عادت إلى البيت متمهلة. لقد سرّها خروجها من البيت، فقد جمعت ملء ذراعيها من الأزهار البرية والأعشاب وهي تفكر في التألق الذي ستضفيه على غرفة الاستقبال.

فتحت الباب الأمامي شاعرة بأنها لم تفكر في هاريس مرة واحدة على مدى عشر دقائق كاملة، وتوجّهت مباشرة إلى المطبخ لتحضر زهرية تنسق فيها الأزهار. لم تكد تتجاوز الباب حتى سمعت أصواتاً قادمة من غرفة الجلوس.

توقفت، وخطر لها أن تدخل باسمة.. فقد جاء هاريس. ولكن يجب أن تمحو ابتسامتها عن شفتيها وإذا كان هاريس قد أحضر أخته لتنام الليلة هنا.. فلا سبيل إلى مشاركته غرفته مرة أخرى. ويمكنه أن يستعمل أي عذر كان، ولكنها حتماً لن تقبل بذلك!

شعرت فجأة بالخجل، رغم أنها كانت تجاهد لتسبغ حولها جواً من الحياد. سارت وفي نيتها أن تطل برأسها من الباب محيية، وإذا بهاريس يخرج من غرفة الجلوس.

احمر وجهها، ورأته ينظر إلى وجهها الوردي، ثم قالت برقة: «هاريس، لم أتوقع مجيئك اليوم».

ـ هل الأمر مزعج؟

سألها وفي عينيه دعابة، فأجابت: «أبداً. هل فاي معك؟».

هز رأسه نفياً. وعندما نطق بكلمته التالية، انهار عالم مالون: «لقد أحضرت ڤيڤيان. أدخلي وتعرفي عليها».

ڤيڤيان! لم تعرف مالون كيف استطاعت أن تخفي صدمتها. لم يسبق أن قال إن لديه صديقة. لم يخطر في بالها قط أنه سيحضر معه امرأة إلى هنا! ابتسمت ورافقته إلى غرفة الجلوس، لم تكن تريد أن تتعرف إلى ڤيڤيان. لا نية لديها في التعرف إلى المرأة الأخرى.

كما توقعت مالون، كانت صديقة هاريس أنيقة لا يشوبها عيب. فهي سمراء تناهز الثلاثين... من النوع الذي لا يعترف بسوى أزهار الأوركيديا. ترى كيف تبدو مالون، وهي تحتضن أزهاراً برية؟

قدّم هاريس إحداهما إلى الأخرى بسهولة وظرف، وهو يضيف مسروراً: «لقد جعلت مالون المنزل بيتاً حقيقياً بلمساتها الأنثوية».

ونظرت مالون إلى أرجاء الغرفة بأرضها الخشبية العارية إلا من قطع سجاد، فودّت لو تضربه.

ردت باسمة: «من الأفضل أن أضع الأزهار في الماء».

كان شعر ڤيڤيان هولمز مسرّحاً بعناية، بينما كانت مالون قد تسلقت السياج ودارت في الحقول لتجمع الأزهار والأعشاب. أرادت أن تخرج من هنا بأقصى سرعة فقالت: «أتريدان قهوة؟».

يبدو أن المزايا التي اكتسبتها تدخلت الآن ليزل لسانها، فأجاب هاريس: «حسن جداً، سأرافق ڤيڤيان لأريها بقية المنزل».

لم تستطع مالون بلوغ المطبخ بسرعة كافية.

بحركة آلية، أخرجت مزهرية كبيرة وملأتها بالماء، بينما كانت الغيرة

تنهشها بسهامها الحاقدة. ما الذي جعله يحضر تلك المرأة إلى هنا؟ رباه، إنه يربها البيت، كيف يمكنه ذلك؟

اعترفت مالون في سرّها أن لدى هاريس كل الحق بإحضار من يريد إلى بيته وهو شيء لا علاقة لها به.

يمكنه أن ينتظر غداءه طويلاً، إذا كان يظنها ستطهو لهما! إنها وكيلة هنا لا طاهية. أما إذا كان مغرماً بڤيڤيان إلى حد إحضارها لكي يتباهى ببيته، فليدع ڤيڤيان تطهو له غداءه إذن. وكذلك عشاءه، إذا أراد.

أطلقت مالون آهة مرتجفة. ربما كانت ڤيڤيان هولمز طاهية ممتازة. إنها تبدو كمن يحسن القيام بكل شيء. نبذت مالون هذه الأفكار من ذهنها، وإذا بفكرة مريعة أخرى تخطر لها. إذا كانا سيمكثان لتناول الغداء والعشاء، فما الذي سيمنعهما من قضاء الليل أيضاً؟

آه، لن تحتمل ذلك! لن يتوقع هاريس منها أن تنتقل من غرفتها لكي تستضيف (ضيفته).

كانت مالون تعلم أن المنزل، بغرفتيه وسريريه الوحيدين، لم يكن كبيراً بما يكفي ليستضيفهم، هم الثلاثة. فإذا بقيت ڤيڤيان هولمز، سترحل مالون بريتويت.

كانت تصب القهوة عندما سمعت وقع خطاهما على خشب الأرضية العاري في الطابق الأعلى. ما الذي يفعلانه هناك كل ذلك الوقت؟

وأخيراً نزل هاريس ورفيقته السلم وأحضرها إلى المطبخ. صبّت مالون ثلاثة فناجين، وعندما جلسوا يحتسون القهوة، سأل هاريس ڤيڤيان رأيها بالمطبخ، قائلاً: «معظمه من تصميم فاي».

وبشكل ما، استطاعت مالون أن تبقي ملامحها هادئة. يبدو أن ڤيڤيان تعرف فاي. هل يعني ذلك أن ڤيڤيان هي حبيبة هاريس منذ مدة طويلة؟

رأت مالون أن هذا الحل هو الأرجح. ربما كانت ڤيڤيان هي التي يمضي معها هاريس العطل الأسبوعية التي لا يأتي فيها إلى «هاركورت

هاوس».

وبما أن فاي تعتقد أن مالون خليلته، فلا بد أنها تعرف ڤيڤيان بشكل سطحي وليس لديها فكرة عن جدية العلاقة بينهما. ولكن..

ـ وما رأيك يا مالون؟

نظرت مالون إلى ڤيڤيان وأدركت أن المرأة تسألها رأيها في المطبخ.

ـ أظن أن عمل فاي كان رائعاً.

أجابت مالون بذلك، ثم اكتشفت، عندما أشارت ڤيڤيان إلى واحد أو اثنين من أجهزة المطبخ التي يمكن استبدالها، أن المرأة مستعدة للانتقال إلى هذا البيت في أيّ لحظة.

عندما أشركتها ڤيڤيان بالحديث مع هاريس، وجدت أنها كانت لتحبها في ظروف أخرى لكن هذا لا يعني أنها ستبقى هنا إذا صممت ڤيڤيان على البقاء الليلة.

سألتهما، أولاً، لأنها ابتدأت تشعر بمودة نحو المرأة، وثانياً، بدافع التهذيب إن كانا سيبقيان لتناول الغداء. حدقت فيها تلك العينان الدافئتان الرماديتان، وعندما أخذ قلبها يدق حوّل نظراته عنها بسرعة، لتستقر على ڤيڤيان. وفي لحظة جنونية، خيّل إلى مالون أنه نسي وجود ڤيڤيان هولمز ولإثبات جنون فكرتها، ابتسم لڤيڤيان وأجاب عنهما معاً: «لا أظن ذلك. أظننا سنذهب الآن. هل رأيت ما يكفي، يا ڤيڤيان؟».

كان جوابه، يوضح كل شيء. عندما ينتهي العمل في المنزل، ستنتقل ڤيڤيان معه إلى «هاركورت هاوس».

كانت مسرورة لذهابهما، إلى حد أنها ابتسمت وهي تودعهما. لم يكن هاريس يفكر في مالون بريتويت عندما طردها بقوله (أرجوك يا مالون، اذهبي الآن) بل كان يفكر بحبيبته ڤيڤيان هولمز.

هتفت مودعة ببشاشة، وهي تراه يتبع ڤيڤيان خارج المطبخ. رجل شريف! ويا له من شرف!

كانت مجروحة، ومع ذلك لم تستطع أن تقاوم إلقاء نظرة على هاريس وهو يمرّ بجانب نافذة المطبخ ثم سارعت إلى إدارة ظهرها، فلو حدث ونظر، سيرى أنها قد نبذتهما من ذهنها، وأن انتباهها كان موجهاً إلى خزانة المطبخ لتبحث عن شيء ما.

صحيح أن مالون لم تكن تنظر من النافذة، إلا أن أذنيها كانتا مرهفتين تصغيان إلى هدير السيارة الذي ينبئ بابتعادها، عندئذ فقط، يمكنها أن تتخلى عن حذرها.

رغم إصغائها وفروغ صبرها لرؤيتهما يذهبان إلا أنها لم تسمع هدير محرك سيارة، بل سمعت وقع خطوات.. فجمدت مكانها. إنهما عائدان!

استدارت تواجه باب المطبخ، شاعرة بالخوف لأنه لم يبق لديها ابتسامة تمنحها لهما. ولكن، لا. لا بد أن ڤيڤيان تنتظر في السيارة، لأن هاريس، كان قادماً وحده نحوها.

دخل واقترب منها حتى لم يبق بينه وبينها سوى مسافة قدمين، ثم توقف. جمدا بصمت يحدقان ببعضهما. سمّر هاريس نظراته عليها، بينما شعرت مالون بجوّ من التوتر بينهما، وأنها لم تتخيّل ذلك. جاهدت في كسر هذا الصمت.. لكن حلقها أصبح فجأة جافاً فخرج صوتها مبحوحاً وكأنه يختنق: «هل.. هل نسيت شيئاً؟».

نظر هاريس في عينيها العميقتي الزرقة، وقال بهدوء: «يبدو أنك في مزاج سيء».

أدركت مالون أن هذا الرجل لم يتكهن سبب (انحراف مزاجها)، لذا ينبغي أن تبدي البهجة. واستطاعت أن ترسم ابتسامة أخرى: «من؟ أنا؟».

خشيت أن يكون أدهى من أن يُخدع، فتابعت تقول: «ما هو شعورك إذا دخلت البيت متمرغاً بالأوحال وكان عليك أن تصافح ضيفة تمثل آخر صيحة في الأناقة؟».

ابتسم ببطء: «هل أزعجك الأمر؟ ڤيڤيان هي...».

لكنها لم تشأ أن تسمع ما يريد قوله عن ڤيڤيان، فضحكت بمرح وهي تقول: «إنه شأنك».

ومرة أخرى، راح يتفحصها ثم قال بإلحاح: «هل هذا كل شيء؟ ألست قلقة بالنسبة لأي شيء؟».

ـ لا، أبداً.

ـ هل تنامين جيداً؟ هل يصيبك الأرق أو الكوابيس لأنني فقدت رشدي قليلاً في آخر...

فقاطعته: «لا، طبعاً».

لم تكن تريده أن يسترجع ذكرى تلك الليلة. وتابعت: «كما أنني لست زهرة مستنبتة في بيت زجاجي و...».

وسكتت فجأة، تذكر الزهرة المستنبتة بأزهار الأوركيديا.. أي بڤيڤيان: «ألا ينبغي أن تتابع طريقك إلى حيث أنت ذاهب؟».

وتمنت من أعماقها ألاّ يخبرها إلى أين، لأنها لا تريد أن تعلم.

لم تكن تريده أن يتقدم نحوها خطوة ليمسك بيدها، فقد تذوب تحت وطأة لمسته.. ومع ذلك كانت من الضعف والحاجة إليه بحيث لم يعد لديها القوة لتفعل ما ينبغي لها فعله، وهو أن تسحب يدها من يده.

ـ هل أنت واثقة من أنك على ما يرام؟

لَمَ هو هنا يمسك بيدها بينما حبيبته الرشيقة تنتظره في السيارة؟ وأجابت: «تماماً».

وأخيراً تغلبت عليها كرامتها، فسحبت يدها من يده وتراجعت خطوة.

ـ هل ستخبرينني؟

وتمكنت من الضحك بمرح: «أرى يا هاريس، أنك تريد أن تنصّب نفسك طبيبي. ولكن المشكلة انتهت بعد أن تفهّمت وجود حوافز طبيعية معينة.. ينبغي أن تُكبح».

فارقت البسمة ملامح هاريس، ورأته لم يهتم كثيراً بقولها. ولكنه، مع ذلك، بقي يسألها: «هل أفهم أنك صفحت عني لعدم كبحي مشاعري؟».

هذه المرة، كانت ابتسامتها حقيقية، محمّلة بمسحة من الارتياح، لأنها لم تكن تفكر في مشاعره بل في مشاعرها.

ـ إنه ليس موضوعاً هاماً، صدقني يا هاريس.

قالت هذا ثم تقدمت نحوه بحذر. تناست تماماً أن حبيبته تنتظره في السيارة وكانت تلك غلطة، لأنها أدركت حالما تعانقا أن صدمة كهربائية سرت في كيانها. عندما همت بالابتعاد عنه، قبضت على ذراعيها يدان حازمتان، فأخذت، مرة أخرى، تحدّق في عينيه الرماديتين الدافئتين.

همست مالون وهي تشهق: «ها أنذا صفحت عنك تماماً. هل أنت راضٍ؟».

لكنه استمر في القبض على ذراعيها.. وبعد لحظات، أردف بصوت أجش: «عليّ أن أذهب».

ثم خرج.

في الأربع وعشرين ساعة التالية، استعادت مالون في ذهنها زيارة هاريس مرة تلو الأخرى. كيف يجرؤ على إحضار امرأة إلى البيت الذي تسكن فيه؟ وتملكها الغضب في لحظة فبدت غير عقلانية. ولكن لِمَ عليها أن تلتزم بالمنطق إذا شاءت هي العكس؟ لِمَ عليها أن تكون عقلانية؟ إنها تحب ذلك السافل.

لكنه لا يدري أنها تحبه.. ولن يعلم! فهي تعرف مقدار حساسيته، ولهذا ستموت إذا ما شعر بالشفقة عليها. لن تسمح له بذلك.

اختفت كبرياؤها وهي تتذكر كيف ترك ڤيڤيان في السيارة ليعود إليها. تنهدت بعجز وهي تفكر في أنه تمكن، بحساسيته المرهفة، من التنبه إلى أنها، رغم ادعائها، لم تكن مرتاحة.

هل هذا يعني أن أمرها يهمه؟ ولو قليلاً؟ حدثت نفسها: دعي عنك يا

مالون، هل يبدو وكأنه حقاً يهتم بك؟ هل نسيت ڤيڤيان هولمز؟ قال لها (سأري ڤيڤيان بقية المنزل) ڤيڤيان التي تتمتع بدقة الملاحظة وهي تقترح تغييرات في المطبخ. ڤيڤيان التي سألها (هل رأيت ما يكفي يا ڤيڤيان؟).

حسناً، إذا لم ترَ ڤيڤيان ما يكفي، فقد اكتفت مالون. خصوصاً وهي تتصوّر أن ڤيڤيان ستنتقل إلى هنا لتتخذ من «هاركورت هاوس» بيتاً لها. وتعاقب البرد والحرارة على مالون عندما خطر لها أن ڤيڤيان مصممة على القدوم مع أمتعتها، أثناء العطلة القادمة!

استيقظت مالون صباح الثلاثاء وهي تعلم أنها أدركت النهاية. نظرت إلى الجدار الذي يفصل بين غرفتها وغرفة هاريس، وأدركت أنها لن تستطيع أن تحتمل إذا جاء هاريس وڤيڤيان يوم السبت وباتا الليلة في.. في غرفته.

تركت مالون سريرها، مصممة بحزم على حزم أمتعتها قبل أن تأتي ڤيڤيان إلى هنا.

قبل أن يصل بوب ميلر، وضعت مالون ملاءات سريرها ومناشفها في الغسالة، ثم اتصلت هاتفياً بمحطة القطار لتعرف مواعيد القطار.

هناك قطار يغادر في الثانية عشرة وربع إلى محطة القطار الكائنة قرب منزل أمها.

كان الوقت مبكراً للاتصال بها، لكنه ليس كذلك بالنسبة إلى متاعها. حاولت مالون أن تكون عملية وهي تجمع أمتعتها وتنبذ أفكارها غير المرغوبة. إنها الآن تقطع كل الروابط مع هاريس، فهي لن تراه مرة أخرى أبداً. كانت هذه الفكرة تعذّبها. لذا، عندما اتصلت بأمها في الثامنة والنصف، كانت تشعر بتعاسة لم تعهدها من قبل.

ـ مرحباً يا حبيبتي.

كان جواب أمها حاراً مشوباً بالحنان إلى حد أوشكت معه مالون أن تنفجر بالبكاء.

سألتها بصوت مختنق: «هل أستطيع المجيء إليكم؟».

فسألتها أمها بلهفة: «هل تبكين؟».

نعم.. إنها تبكي، وتنزف من الداخل..

ـ هل يمكنني المجيء؟

ـ طبعاً يمكنك، أنت تعلمين ذلك.

وأدهشت مالون بسؤالها التالي: «كيف ستحضرين إلى هنا؟ أتريدينا أن نأتي أنا وجون لنأخذك؟».

فأجابت مالون: «لا، لا. أنا بخير. سأستقل قطار الثانية عشرة والربع.. كما أنني لا أبكي».

بعد ذلك، ذهبت تبحث عن كيڤين الذي وافق على ايصالها، عندما أخبرته أن عليها أنّ تكون في المدينة عند الظهر.

أخذت أمتعتها إلى المطبخ، ثم اطمأنت إلى نظافة المكان واهتمت بكي غسيلها ووضعه في الدرج. عند العاشرة والنصف، ذهبت لتبحث عن بوب ميلر.

وجدته على وشك أن ينطلق بسيارته إلى مكان آخر يبعد أميالاً فأوضحت له ببشاشة أنها ستغادر «هاركورت هاوس»، وستترك مفاتيح المنزل.

بدا الفضول على وجهه. وعندما لم تزد مالون شيئاً على كلامها تكلف الذعر وقال هازلاً: «أتعنين أنك سترحلين لتتركيني أعد الشاي بنفسي؟».

ـ لن يقتلك الأمر.

أجابته بذلك. وبعد أن اتفقا على أن تسلم المفاتيح إلى كيڤين، عادت إلى البيت.

لم تقرر ما ستفعله بالنسبة إلى هاريس لأنه فقد وكيلته. أرادت أن تتصل به ولكنه قد لا يكون موجوداً، أو قد يكون لديه اجتماعاً. لقد كان طيباً للغاية معها، فقد آواها في بيته وأعطاها عملاً، وأقل ما عليها فعله هو التحدُّث إليه شخصياً، رغم أنها لا تعرف سبباً تقدمه لرحيلها.

وأخيراً، أخذت دفتر الرسائل، وهي تدرك أن السبب الوحيد الذي يدفعها إلى الاتصال به هو أنها تبحث عن عذر. كانت متلهفة لسماع صوته، وهو أمر يثير الرثاء إذ يجب أن تكون قوية.

عندما كتبت أخيراً ما تريده، لم يعد لديها وقت لتضيّعه. شكرت هاريس لشهامته، لكنها قالت إنها تشعر بأن الوقت حان لترحل. كانت تعلم بأنها لن تراه مرة أخرى، ما يعني أنه لن يستطيع أن يستجوبها بشأن قرارها...

عندما جاء كيڤين إلى المطبخ ورأى أمتعتها سألها: «أتريدين وضع هذه في الشاحنة؟».

ـ سأحمل أنا واحدة منها.

عندئذ رن جرس الهاتف، فقال كيڤين: «ما من مشكلة. سأحمل الأمتعة بينما تجيبين أنت».

وتوارى قبل أن تقرر مالون ما إذا كان ينبغي عليها أن ترد. ولكن من تراه المتصل؟ كانت تغلي من الداخل إنما ذهبت لتجيب. كانت أمها قد ألحّت عليها لتأتي مع جون كي يأخذاها من المحطة. لكن أمها لم تستشر جون، وها هي تطلبها لتقول لها أن تحضر بسيارة أجرة.

كانت واثقة من أنها أمها، فلماذا إذن تشعر بهذا الارتجاف؟ ورفعت السماعة: «آلو؟».

ـ كيف هي الحياة عندكم في هذا الطقس المشمس؟

جاءها صوت هاريس، فانهارت على كرسي. بدا صوته دافئاً، ومزاجه مرحاً. فأجابت: «بأحسن حال. في الواقع..».

ولم تستطع أن تنطق بكلمة.

ـ في الواقع؟

ألقى عليها السؤال، ثم تغيّرت لهجته: «ماذا حدث؟».

ـ لا.. لا شيء.

ـ ما الذي يحدث . . معك؟

ألحّ عليها، كانت تعلم أنها تتخيّل ذلك، لكن صوته بدا جدياً وكأن الأرض ستنهار.

إنها مجرد أمنيات! كانت تعلم أن عليها أن تخبره، وقالت: «أنا راحلة».

ـ راحـ . . .

وسكت، يبدو أنه كان يبحث بنفسه عن السبب: «هل جاء فيليبس مرة أخرى؟ أعرف أنه هذا الأسبوع يعمل في البيت. إذا كان . . .».

ـ لا. لم يقترب من هنا.

أجابت بسرعة، متكهنة بأن تلك المعلومات قد بلغته من فاي.

ـ ماذا إذن؟

ـ فكرت فقط في أن أوان الرحيل قد حان. هذا كل شيء.

تمنت، وهي تحبه، لو أنه يطلب منها البقاء.

ـ هل أنت خائفة؟ هل كدرك شيء ما؟ هل هو أنا؟ إذا . .

ردّت بسرعة: «لست أنت».

كيف يمكنها أن تكذب عليه . . وكيف يمكنها العكس؟ وأضافت: «كما أنني لست متكدرة».

ـ بل أنت كذلك!

ـ أنا أفكر فقط . . بأنني أريد أن أرحل.

ساد صمت قصير قال بعده: «سنناقش هذا أثناء العطلة. سأحضر يوم الجمعة . . .».

وحده؟ فقاطعته: «أنا راحلة . . الآن».

زمجر قائلاً: «لا يمكنك!».

واغرورقت عيناها بالدموع وهي تضع السماعة مكانها بهدوء. أخذ الهاتف يرن مرة أخرى. ولكنها هذه المرة فعلت ما كان ينبغي أن تفعله،

فتجاهلته.

ذهبت إلى المطبخ ومزقت الورقة التي كتبتها له، فلم تعد ضرورية.

بعد أن أقفلت الأبواب، مستثنية ما يحتاج إليه العمال للدخول والخروج خرجت إلى الشاحنة ورنين الهاتف في أذنيها.

تابع كيڤين الحديث معها بحيوية وبشاشة طوال الطريق إلى المحطة وعند وصولهما أصر على نقل أمتعتها إلى الرصيف. وعندما ناولته مالون مفاتيح البيت، سألها: «هل ستعودين؟».

ـ ربما أعود.

شكرته وودعته وهي تعلم أنها نطقت لتوّها بأكبر كذبة فهي لن تعود. لقد غادرت «هاركورت هاوس» إلى الأبد، والأمر مؤلم للغاية.

تأكدت من أن الاتصال الثاني كان من هاريس، عندما وجدت أمها وزوجها في المحطة.

كان القلق بادياً على أمها، لكن مالون لم تستطع أن تنغّص سعادة أمها، فعانقتها وقبلت جون وهي تقول ببشاشة: «من الجميل أن أعود إليكما ولكنني لن أقيم طويلاً».

رد جون: «تعلمين أننا نرحّب بإقامتك هنا قدر ما تشائين، إنه بيتك الآن».

فابتسمت له مالون، لكنها كانت تعلم أنها ستؤسس بيتها في مكان آخر.

عندما وصلا إلى البيت، حمل جون حقائبها إلى الغرفة التي أعدتها أمها لها، وقال لها باسماً: «سأتركك لترتاحي».

خرج فيما بقيت أمها لتسألها: «ما الذي حدث يا مالون؟».

لأنها كانت سعيدة، لاحظت الأم فوراً أن ابنتها غير سعيدة في أعماقها رغم بشاشتها.

نظرت مالون إلى المرأة الغالية على قلبها والتي أصبحت أكثر ثقة بنفسها

ولم تعد بحاجة إلى حماية من ابنتها. حاولت أن تتملص من الجواب، ولكن نظرة إلى أمها أنبأتها باستحالة أن تكذب عليها: «لقد أحببته».

ـ هاريس كوبليان؟ وهل أحبك هو؟

ـ لديه صديقة يحبها، فرأيت أن من الأفضل أن أتركه.

ـ أواه، يا حبيبتي.

هتفت أمها وهي تحتضنها.

أمضت مالون النهار متلبدة الحواس، وعند المساء كانت تساعد في إعداد العشاء، عندما دخلت أمها قائلة إنهم سيتناولون العشاء باكراً لأن...

وسكتت، فسألتها ابنتها: «ماذا؟».

وابتسمت إزاء نظرة أمها المذنبة، لكنها فهمت أخيراً أن أمها وزوجها كانا قد قررا الذهاب إلى المسرح ذلك المساء.

فقالت مالون مازحة، مدركة تماماً أنهما ألغيا أمسيتهما لأجلها: «لا أريد أن أسمع أنكما لن تذهبا».

ـ ولكنك.. متكدرة!

ـ لا، لست متكدرة. كنت كذلك لكنني بخير الآن.

كان المنزل هادئاً بعد خروج أمها وزوجها، وأدركت أن عليها أن تشعر بالسرور لهذا الجوّ من الهدوء والسلام. رغم أن البنّائين يغادرون عادة في مثل هذا الوقت، إلا أنها اعتادت الجلبة في أرجاء المكان، وتمنت لو تعود إلى هناك. بعد لحظة، اعترفت لنفسها بأنها لا تشتاق إلى جلبة البنّائين بل.. إلى المنزل فقط، لتتوقع في كل لحظة اتصال هاريس أو مجيئه إلى البيت. وتمنت قليلاً لو أنها لم تغادر المنزل، لكنها كانت تعلم أن البديل لذلك أن تبقى وتراقب علاقته مع ڤيڤيان هولمز.. سيكون الأمر لا يطاق.

كانت مصيبة في الرحيل. تصلب ظهرها بتصميم، لكن ذلك لم يخفف من ألمها. لقد فصلت هاريس عن حياتها.. تركته من دون أن تترك له

عنواناً. سيخمن أنها ذهبت إلى بيت أمها، ولكنه لا يعلم بمكانها، ولا يعرف حتى اسم والدتها بعد زواجها. وعضت شفتها بقوة لسخرية الأقدار منها.. هل يحتمل أن يأتي هاريس باحثاً عنها؟

سرّها أن تترك لها أمها الأطباق، فهي لم تكن تريدها أن تُتعب بمزيد من العمل. كانت تشعر بالحاجة إلى أن تشغل نفسها على الدوام، فقد يساعدها الأمر على عدم التفكير في هاريس.

لكن هذا الحل لم ينفع. وفي الثامنة والنصف، بدا البيت منظماً فيما ذهبت إلى غرفة الجلوس وجلست على كرسي مريح، ولكنها سرعان ما عادت لتقف.. لم تستطع أن تشعر بالاستقرار.

صعدت إلى غرفتها لتحضر كتاباً ثم قرأت منه فقرة واحدة قبل أن تتحوّل أفكارها إلى هاريس الذي عارض رحيلها. ذاب قلبها رقة وهي تتذكر قوله: «سنتحدث في الأمر أثناء العطلة، فأنا قادم يوم الجمعة».

ذكّرها المنطق بأنه قد يأتي حقاً ولكن ليس وحده. وهذا هو سبب رحيلها، فهي لن تطيق رؤيته مع ڤيڤيان هولمز. كانت تعلم أن الأمر لم يكن مجرد غيرة، بل صيانة للكرامة. إذا كان سيسعد مع ڤيڤيان، فهي تتمنى له حظاً سعيداً، لكنها لا تريد أن تبقى قريبة منهما.

شعرت بأن اليأس يحيط بها كسحابة مظلمة، فنبذت هاريس من ذهنها، ونهرت نفسها فعليها أن تنطلق في حياة جديدة.

ورن جرس الباب. لم تذكر أمها أن أحداً سيزورهم. ذهبت إلى الباب تفتحه، وإذا بها تتلقى أكبر صدمة في حياتها.

توهج وجهها احمراراً، ثم شحب مجدداً. لم يكن الطارق يريد أمها، أو زوج أمها. لكنه كان ذا عينين رماديتين لا تبدو فيهما المودة على الإطلاق، رأت الرجل الذي كانت تفكر لتوّها بأنه لا يعرف المكان الذي رحلت إليه.

وشهقت: «كيف.. كيف عثرت عليّ؟».

عاد لونها إليها، لكن ذهنها لم يعد يستطيع التفكير أكثر من ذلك.

حدّق هاريس إليها متصلباً: «بكل صعوبة، مضحياً بما تبقى لي من كرامة».

وأخذت نظراته تتفحص وجهها، من دون أن تعلم عما يبحث: «أريد أن أتحدث إليك وحدنا. سنتحدث في سيارتي».

وبان التوتر في صوته.

***

٨ ـ سيدة القصر

بقيت مالون تحدق إليه بذهول حتى عندما تراجع خطوة، متوقعاً منها أن تتبعه إلى سيارته.

سألته مترددة وهي تشعر بدوار: «هل.. هل تريد أن تتحدث إلي؟».

وعاد ذهنها يعمل، وأخذت الأفكار تتلاحق. كيف وجدها؟ إنه لا يعرف عنوان أمها الجديد، حتى ولا عنوانها القديم. لماذا أزعج نفسه بالبحث عنها؟ ثم... ماذا بقي ليتحدثا عنه؟

وأجابها عابساً: «نعم. ووحدنا».

وحدنا؟ من دون وجود أمها وزوجها؟ هل يريد هاريس أن يطردها من العمل لرحيلها من دون إذن منه؟ يبدو عليه من مظهره الصارم أنه سيوبّخها، لكنه لا يريد أن يذلّها أمام الآخرين.

فتحت فمها لتخبره بأن يذهب إلى الجحيم، ولكنها اعترفت بضعفها أمامه ولم تشأ أن تدعه يذهب مرة أخرى.. ليس الآن، وهو لن يلبث أن يبتعد عن حياتها إلى الأبد.

ـ تفضل بالدخول.

ـ قلت وحدنا.

ـ أمي وزوجها غائبان، ويمكنك أن تدخل إلا إذا كنت تنوي قتلي.

تقدم خطوة إلى الأمام فأمسكت له الباب فيما اجتاز العتبة فتبعته ثم

www.liilas-romancia.com

تقدّمته إلى غرفة الجلوس وقلبها يخفق لرؤيتها غير المتوقعة له.

وفي غرفة الجلوس، استدارت لتسأله عما جعله يبحث عنها. وقعت عيناها على وجهه، الذي كان عابساً وعدائياً، فرأته، رغم ذلك، حبيباً.

لكنها وجدت نفسها تسأله، وهي ترى من لباسه أنه جاء مباشرة من مكتبه: «هل تعشيت؟».

- ومن يريد طعاماً؟

رفض دعوتها بازدراء وقلة تهذيب. وفكرت في أن تدعوه إلى الجلوس، لكنه لن يمكث طويلاً.

وسألها فجأة: «لماذا رحلت؟».

كان يريد تفسيراً لم تكن تملكه. عاد ذهنها إلى التوقف عن التفكير. وقالت: «منذ البداية لم أكن أنوي البقاء! وأنت تعلم أن عملي مؤقت».

نظر إليها بغيظ. وعندما نظر فجأة في عينيها، لانت لهجته وهو يقول: «فكرت في أن نتحدث.. نحن الإثنين».

أواه، يا هاريس! إنها تريد أن تكون فظة معه وهو يصعّب الأمر: «يمكننا ذلك. لقد سبق وتحدثت معك، وأخبرتك بأشياء لم أخبرها لأحد. ولكن...».

وسكتت متخاذلة، شاعرة بأنها قالت الكثير.. فقد سبق وقالت الكثير والكثير أيضاً.

- ما الذي حدث إذن؟ ماذا حدث لتلك الثقة التي وضعتها بي لتهربي حتى دون أن تحدثيني أولاً؟

كانت نظراته مسمّرة على وجهها بثبات قبل أن يتهمها قائلاً: «لو أني لم أتصل بك هاتفياً لما كنت أخبرتني عن قرارك».

لم يعجبها تحليله، ولومه، ولا حتى اتهامها بالهرب. فاندفعت تقول: «هل لك بالجلوس؟ أتريد شراباً؟ ما دمت لا تريد أن تأكل؟».

لم يعجبها أن يأمرها بخشونة: «لا تثوري في وجهي، يا مالون. أنا لا

أحب ذلك. خصوصاً وأنك تعلمين أنني لن أؤذيك أبداً».

ليت كلامه صحيح! فهي تتألم بسببه. سارت إلى كرسي مريح فجرّ كرسياً قربها وجلس عليه.

كانت تفصل بينهما خطوات فحاولت تبرئة نفسها من دون أن تفضح مشاعرها، فظنت أن باستطاعتها تفسير الأمر: «لقد كتبت لك ورقة».

- لم أجدها.

لقد ذهب إلى منزله إذن: «هل ذهبت إلى هناك؟ بعد اتصالك بي لم يبق للورقة أي فائدة، فمزقتها. إذن.. ذهبت إلى «هاركورت هاوس؟».

- طبعاً كنت هناك!

تكلم بخشونة، ثم تابع يقول ما أدهشها تماماً: «كنت في منتصف الطريق عندما اتصل بي بوب ميلر ليقول إنك رحلت. بدا لي...».

- لم يكن بوب ميلر موجوداً حين رحلت.

- أعلم ذلك.

وخطرت لها فكرة فجأة فسألته مذهولة: «لا أظنك تركت مكتبك وجئت إلى «أبرماسي» فقط لأنني...».

وسكتت. هو طبعاً لم يفعل ذلك! لا بد أن الحب أعمى ذهنها: «آسفة، إنه سؤال غبي مني».

بين يديه معاملات بملايين الجنيهات، فكيف يخطر ببالها أنه سيترك عمله فقط لأنها أبلغته برحيلها! لكنها رأته يومئ بوضوح فتسارعت دقات قلبها، واحمر وجهها وهو يضيف: «تأخرت فقط لأتصل ببوب ميلر، ثم انطلقت».

- أنت... أنت...

وخانتها الكلمات. كانت تفترض أنها وكيلة كفؤة، ولكن إلى هذا الحد؟ ليترك هاريس عمله ويأتي إلى منطقة «أبرماسي» أو ليطلب منها أن تعيد النظر؟ صفعها المنطق لأنها حمقاء. إنها مجرد وكيلة لهاريس لا أكثر وليست

مديرة منفذة عالية المقام في شركته المالية. أرادت أن تصل معه إلى حل معقول: «أنت.. قلت إنك اتصلت ببوب ميلر!».

- اتصلت بالخلوي. لم يكن في المنزل إذ كان منغمساً في أحد أعماله الأخرى التي تبعد حوالى عشرة أميال، قال إنك تحدثت معه عن إعطائه المفاتيح ليحتفظ بها.

توقف هاريس ثم أردف بتلك النظرة الثابتة التي تعرفها جيداً: «لم أهتم مطلقاً بحسمك للموضوع، بل أخبرته بأن يعود إلى «هاركورت هاوس» ويمنعك من الرحيل».

اتسعت عيناها الجميلتان وهي تشهق: «يمنعني من الرحيل؟».

- وعندما وصل إلى هناك، كنت قد رحلت.

في أعماقها كانت مالون مضطربة، وجاهدت للاحتفاظ بهدوئها. حدثت نفسها بأن هاريس رب عمل حساس وشهم، وأنه كان ليتصرف على هذا النحو تجاه أيّ من مستخدميه، لكن عقلها لم يعجبه هذا التحليل. حدثت نفسها: هيا يا مالون، هل تصدقين ذلك حقاً؟ ولكن إذا لم تصدق هي ذلك.. فلمَ يترك هاريس، رجل الأعمال المرموق، كل شيء ليراها... ويحاول منعها من الرحيل؟ ألا يعني هذا أنه يشعر نحوها ببعض الاهتمام الشخصي؟

فتحت فمها مذهولة رغم أنها لا تصدق اهتمام هاريس بها. لا شك أن هذه الفكرة صدمتها نوعاً ما.

- أنت...

لم تستطع أن تنطق بغير ذلك ثم عاد ذهنها إلى التحليل: «وقررت متابعة طريقك إلى «هاركورت هاوس» على كل حال؟».

أجاب وهو ينظر في عينيها بثبات: «كان خياري الوحيد. عندما أدركت أنني لا أعرف في أي طريق ذهبت، وأنني لا أملك أي عنوان لك... إلا إذا ذهبت إلى بيت أمك الجديد.. تملكني الأمل في أن أعثر في

غرفتك أو في أي مكان آخر في المنزل على ما قد يدلنا على مكانك».

- هل فتشت غرفتي؟

سألته بضعف، وهي تحاول جاهدة ألاّ ترى أي خطأ في عمل هاريس.

فأجاب: «فتشت في كل مكان».

- ولم تجد شيئاً؟

فقال بصعوبة: «ولا أثر يرشدني إليك».

رباه، يبدو وكأنه حريص على العثور عليها.

ابتسمت متظاهرة بالهدوء: «و... ولكنك وجدتني. أنت هنا الآن. كيف عثرت علي؟».

رغم الاضطراب الذي يتملكها، أرادت أن ترضي فضولها. ولأول مرة منذ وصوله، بدا عليه الارتياح. أجاب بشبه ابتسامة: «كما سبق وذكرت، أهدرت ما بقي من كرامتي. إلاّ أن العثور عليك يستحق هذا العناء».

رفض قلبها بجنون أن يقبل المنطق المتزن.. لا يمكن أن يعني ما تظنُّه. هل يهتم هاريس بها قليلاً؟

وسألته بصوت لا يكاد يعلو عن الهمس: «عنواني؟».

- نعم. عنوانك. كنت في غرفة الجلوس، وتلك الأزهار البرية التي قطفتها الأحد الماضي ما زالت يانعة في إنائها، وحاولت ألاّ أستسلم لليأس.

لو أنه لم يشر إلى زيارته لها نهار الأحد بنفس اللهجة التي ذكر فيها يأسه من احتمال العثور عليها، كان قلبها ليقفز من صدرها. لكنه ذكر الأمرين معاً، وذكّرها بأنه أحضر معه حبيبته ڤيڤيان هولمز، فأبطل أي مشاعر حمقاء تملكتها.

- لا بد أنني تركت أثراً ما، على كل حال.

قالت بجفاء وفتور، فرأت هاريس يقطب جبينه للتغيير الذي أصابها.

لكنه تمسك بهدفه بحزم، رغم أن مالون حارت في إدراك الهدف الذي يرمي إليه.. إلا أنها لن تعود حتماً إلى منزله. قال هاريس: «كنت أحاول

بلهفة أن أتذكر أي شيء قلته، قد يرشدني إليك. وهكذا عدت إلى نقطة البداية، حيث تقابلنا عندما كنت هاربة من صهري، ولكنني لم أجد دليلاً إلى أن تذكرت أنك كتبت إلى رولاند فيليبس بشأن الوظيفة. وأدركت أن فيليبس يملك عنوانك القديم، فذهبت لرؤيته».

- أواه، يا هاريس!

تمتمت بشكل تلقائي، وقد أدركت ما يعنيه بقوله (إهدار كرامته) فقد كان إذلالاً كبيراً له أن يطلب خدمة من فيليبس.

- لا بد أنك كنت متلهفاً للحصول على عنواني.

نظر إليها مطوّلاً دون ابتسام، ثم قال ببساطة: «هذا صحيح».

فقالت فيما جفّ حلقها: «هل.. هل أعطاك إياه دون... دون جدال؟».

عندئذ ابتسم هاريس: «لا يمكنني القول أن ذلك تم دون جدال. في البداية قال إنه لا يعرف مكان رسالتك، وعندما قلت له إنك كنت تنظمين ملفاته في المكتب..».

- هل تذكرت أنني قلت لك إنني نظمت مكتبه؟

- ألم أقل لك إنني استرجعت كل ما قلته لي، لأعثر على دليل؟ ذكرت له باقتضاب مصير وظيفته عندما يسمع رؤساؤه بتصرفاته.

- هل وجدت رسالتي في ملف كُتِب عليه (مراسلات عامة)؟

فأومأ: «ثم كان عليّ أن أقف حوالى الساعتين، منتظراً الساكن الجديد ليعود، آملاً في أن يكون لديه عنوان أمك الجديد».

حدقت مالون إليه وعلا أذنيها طنين. لا تستطيع أن تنكر ما أنبأها به كلامه.

سألته بصوت أبح: «هل عانيت كل ذلك؟».

فنظر إليها باتزان، ثم قال بهدوء: «كان الأمر مهماً لي».

تركزت عيناها عليه عندما أضاف بعناية: «أنت مهمة بالنسبة إليّ، يا

مالون».

عندئذ، غمرها شعور لم تستطع أن تبقى معه جامدة، فانتصبت واقفة وابتعدت عنه، توليه ظهرها لئلا يرى فيض المشاعر على وجهها.

سمعته يتحرك ثم وقف خلفها يهدئها بقوله: «لا تفزعي. أنا أعلم أنني تجاوزت الحد معك منذ أسبوع، وإذا كان تصرفي أخافك مني وجعلك تهربين، فسنأخذ الأمور بشكل...».

استدارت مالون تواجهه. بدا قلقاً، مرهقاً فلم تستطع احتمال ذلك. إذا كانت هي من سيمرّغ كرامته في التراب، فليكن، رغم أنها ما زالت تجد صعوبة في تصديق أنه اندفع إلى منزله، متغلّباً على كبريائه وذهب ليطلب خدمة من صهره ثم جاء يبحث عنها.. كيف تدع هاريس يظن نفسه مذنباً أو أنانياً؟

أردفت برقة: «يا هاريس، ما أسوأ ذاكرتك».

حدق إليها، وكان الإرهاق بادياً عليه، وسألها: «هل كدت أرعبك؟».

فهزت رأسها، حتى أنها استطاعت أن تبتسم: «لا بأس، عليّ أن أعترف بأنني لست ماهرة للغاية، وهناك الكثير لأتعلمه، ولكن أذكر أنك أمرتني بترك الغرفة وليس العكس».

بدا وكأن الإرهاق فارقه، لكنه سألها: «ألم يحدث ما أزعجك وجعلك قلقة متضايقة مني..؟».

- الشيء الوحيد الذي أزعجني هو اعتقادي أن بإمكاني الوثوق بك، وإذا بي أكتشف...

وترددت. لأنه كان يتألم كما يبدو.. هي تحبه إلى حد لا تريد له الألم. وتابعت: «اكتشفت أنني.. لا أستطيع أن أثق.. بنفسي».

حدّق هاريس بها لحظة بدت لها دهراً، ثم قال برقة: «يا عزيزتي، أتعنين أنني لو لم أطلب منك المغادرة، كنت لـ...؟».

ـ ما كنت لأستطيع أن أمنع نفسي. . .

ـ آه، يا حبيبتي.

تمتم بذلك وهو يمدّ ذراعيه لها. خفق قلبها بعنف وهي تلقي بنفسها بين ذراعيه. تملكتها البهجة وهي تشعر بدفئه فسألها: «ألهذا السبب هربت؟ ألأنك لم تثقي بنفسك وأنت معي تحت سقف واحد؟».

ونظر في أعماق عينيها. لا بد أنه يهتم بها شخصياً. فكل شيء يصدر عنه، كل نظرة، كل ما عرفته للتو يثبت لها أنه ما كان ليأتي إليها ويحتضنها بين ذراعيه بهذا الشكل، إذا كانت لا تهمه. كانت تعلم أنها تثق به تماماً، إلا أنّ عزة نفسها منعتها من أن تكون صريحة معه كما يجب، وبعد لحظة صمت، قالت: «ليس تماماً».

ـ هل هربت لسبب آخر؟

سألها بنفس الحدة التي تعرفها عنه. وشعرت عندئذ أن من الأفضل ألاّ تقول له شيئاً على الإطلاق. لأنها إذا قالت الحقيقة، فسيفهم أنها تحبه. صحيح أنه يهتم بها قليلاً، إلا أن مشاعره بعيدة جداً عن الحب الحقيقي الذي تشعر به نحوه.

وسألها برفق: «ألا تريدين أن تخبريني؟ حتى عندما يتسنى لنا أن نتحدث معاً؟».

ضحكت بخفة وهي لا تدري متى التفت ذراعاها حول خصره. كان مجرد وقوفهما معاً بهذا الشكل، يملأها بهجة ومتعة. وقالت باسمة: «هناك أمور لا تحب الفتاة أن تخبرها حتى لأعز صديق لديها».

ابتسم هو أيضاً وانحنى ليعانقها ثم قال وهو يقف منتصباً وعيناه في عينيها: «رغم أنك تعلمين أنني واقع في غرامك إلى أقصى حد؟».

حملقت فيه بشكل لاإرادي، وجفّ حلقها. . هاريس، هاريس، هاريس. . ما الذي يعنيه بالضبط بكلامه؟

سألته وهي تلملم شتات نفسها: «هل لك أن. . توضح كلامك؟».

لكنه بدا بنفس الحذر وهو يقول: «حسب علمي، ما كنت لتتفوهي بذلك إلا إذا كنت تشعرين نحوي بشيء ما».

ها هوذا يقترب من الحقيقة. وترددت، حاولت أن تقول: «أنا. . هذا. . ».

وتلعثمت، ثم أدركت أنها، وهي تقول تلك الكلمات المتقطعة، اعترفت بأنها تشعر نحوه بشيء ما.

أدرك ذلك هو أيضاً، فاشتدت قبضته عليها قبل أن يمنحها ابتسامة صغيرة ويقول: «ابتدأ ذلك ذات يوم ممطر عندما توقفت بسيارتي لأعرض عليك توصيلك. رفضت في البداية. . ».

ـ لكنك قمت بجولة ثم عدت مرة أخرى.

أكملت كلامه هامسة. فقال: «حدّثت نفسي بأنني تصرفت بغباء. . وأن شخصاً آخر سيمرّ وستقبلين منه أن يوصلك. ولكن هل ما كان على وجهك مطر أم. . دموع؟».

فقالت برقة: «أخذتني بسيارتك. لم توصلني فقط، بل منحتني عملاً».

ـ ولماذا لا أمنحك؟

سألها عابساً ثم تابع يقول: «فيليبس، مع الأسف، هو نسيب لأسرتنا. . . وقد حاول الاعتداء عليك!».

ـ كنت شهماً.

وابتسمت له، لأنها لم تكن تريده أن يعبس ومالت إلى الأمام ثم عانقته برقة.

ـ آه، مالون، مالون.

تمتم بذلك وقد تلاشى عبوسه، وبدا على ملامحه شبه ابتسامة وهو يتابع: «لا أدري ما إذا كنت شهماً. كل ما فكرت فيه، حينذاك، هو أنني أساهم بإعادتك إلى اتزانك بعد التجربة المحزنة التي عانيتها. أما ما لم أتوقعه

فهو أن أمضي الأسبوع الذي تلاه وخيالك لا يبارحني».

حدقت مالون إليه مسرورة: «هل فكرت بي أحياناً؟».

ـ بل غالباً. حين جئت إلى البيت، لم أستطع أن أتقبّل فكرة أنني في البيت وأنت في الفندق.

وابتسم ثم أضاف: «كنت أعلم أنني لن أستطيع الاستقرار قبل أن أذهب إلى الفندق صباحاً لأحضرك. وإذا بالغيظ يتملكني عندما علمت أنني كنت أفكر فيك، وأنت تمضين الوقت مع رجل اسمه ويلسن!».

فسألته: «ويلسن؟ توني ويلسن!».

ـ كيف أمكنك القيام بذلك؟

ـ القيام بماذا؟

ـ يزداد كل يوم حنقي على الرجل، بينما أنت لا تكادين تتذكرينه.

ـ أنت.. حانق علي..؟

ـ أظن أنّ شعوري يسمى (غيرة).

أجابها وفي عينيه حنان، فخفق قلبها بعنف وسألته غير مصدقة: «هل كنت غيوراً؟ لكننا بالكاد كنا نعرف بعضنا حينذاك».

فقال برقة: «يا عزيزتي. ما أشعر به نحوك غير منطقي على الإطلاق. لقد سررت لعدم وجود هاتف في منزلي كيلا يتصل بك ويلسن. لكنني لم أركّب الهاتف إلاّ لأمنع مجيء فيليبس إليك حاملاً رسالة من أمك. شعرت حينذاك بالغيرة ثم الغضب، إنما أدركت أنني أحب أن أجدك في بيتي فلم تعجبني على الإطلاق مسألة حزمك حقيبتك لتمضي العطلة الأسبوعية في فندق كليفتون».

فقالت متذكرة: «أنت طلبت مني البقاء».

ـ وعندما لم أستطع مقاومة رغبتي بك، كان عليّ أن أدّعي أنها رغبتك أنت.

ـ أنت سافل!

ـ أتحبينني؟

تجاهلت السؤال: «ماذا كنت تقول؟».

عانقها هاريس برقة، متمهلاً، ثم شدّ قبضته عليها وهو يرتدّ إلى الخلف وقال بأسف: «ما كان لي أن أفعل ذلك. كما لم يكن عليّ أن أعانقك السبت الماضي».

ـ أذكر ذلك.

وابتسمت. وهل يمكنها أن تنسى؟ ففي تلك الليلة أدركت أنها تحبه.

ـ تلك الليلة أخبرتك بأنك لست في خطر.. لكنني لم أفكر في أن أقول.. إنني أنا من كان في خطر..

ـ أنت في خطر؟

ـ خطر الوقوع في غرامك، يا عزيزتي.

تمتم بذلك بحنان بالغ، فشهقت.

ـ لم أعترف بذلك لنفسي.. حينذاك.

ـ طبعاً لا.

أتراه قال حقاً إنه كان في خطر الوقوع في حبها؟

ـ لكنني لم أعرف مثل ذلك الشعور من قبل.. وكأنني فقدت سيطرتي على نفسي. أدركت أن عليّ الرحيل وذلك لأختبر نفسي وأحلل مشاعري نحوك.

ـ وهل قمت بذلك؟ هل حللت مشاعرك؟

ـ ليس حينذاك. كل ما علمته أنني في اللحظة التي افترقت فيها عنك، شعرت بأنني أريد أن أعود. كانت الرغبة دوماً تتملكني للعودة إلى البيت ولكنني كنت أقاومها باستمرار. عندما أدركت حقيقة شعوري فهمت أن منظرك الرائع يهدد تحكّمي بنفسي، ولكن لم يكن جمالك فقط هو الذي أغرمت به. أنت تتمتعين بجمال داخلي.

فسألته بخجل: «وهل أنت.. مغرم بي؟».

نظر إلى وجهها، ثم قال بحنان: «عزيزتي مالون بريتويت. حبيبتي مالون بريتويت، ماذا أحاول أن أخبرك منذ عشر دقائق غير أنني أحبك إلى أقصى حد؟».

فتأوهت: «أواه، يا هاريس».

ـ هل لديك مانع؟

فأجابت لاهثة: «لا، أبداً».

ـ وهل تظنين أن بإمكانك أن تبادليني الحب؟

سألها بحذر، ثم أسرع يقول وهو يرى أن خجلها يمنعها من الجواب: «أنا أعلم أنك تعرضت للأذى في الماضي، لكنني لن أؤذيك أبداً. أنت تعلمين...».

شعرت مالون بالنشاط والخفة وعصفت في ذهنها فجأة ذكرى ما سببته لها زيارته منذ يومين من أذى وألم. عندئذ، اختفت كل حرارة نحوه، فسألها هاريس على الفور: «ما الذي حدث؟ أخبريني..».

ـ ما هي علاقتك بڤيڤيان هولمز؟

انفجرت به وقد ثارت مشاعرها نحوه بشكل مؤلم.

فقال من دون تفكير مسبق: «لا علاقة لي بها!».

ـ ولِمَ أحضرتها إذن إلى بيتك الأحد الماضي؟ ولِمَ تجولت معها لتريها البيت، وسألتها عما إذا كانت رأت ما يكفي، ثم..

هذه المرة، انفجر هاريس قائلاً: «ڤيڤيان هولمز امرأة موهوبة في تصميم الديكور».

فتحت مالون فاها: «ولكن..».

وعندما أخذت تستعيد أحداث الأحد الماضي بدقة، وجدت أن كلام هاريس يبدو معقولاً جداً. فقالت وقد تمالكت نفسها قليلاً: «لكنك لم تذكر ذلك. كان يجدر بك أن تذكر الأمر حين...».

ـ الحق معك طبعاً.

وبدت على فمه ابتسامة استخفاف، وهو يتابع: «كان يجب أن أقدمها لك بصفتها مصممة ديكور جاءت لتلقي نظرة على البيت، لكنك جعلتني مضطرباً يا مالون».

ـ أنا.. جعلتك كذلك؟

ـ صدقيني يا حبيبتي، كنت متلهفاً لرؤيتك، لكنني كنت أعلم أن عليّ البقاء بعيداً. اضطررت للقدوم لرؤيتك لأنني لم أستطع أن أبقى بعيداً. لأول مرة في حياتي، شعرت بالضعف ومرت أوقات كنت متلهفاً فيها إلى احتضانك. وبعد ما حصل بيننا منذ أسبوع بدأت أشعر بأنني لم أعد أثق بنفسي حين أكون معك، وازداد خوفي من أن ترحلي إذا تكرر الأمر. ثم ما الذي يضمن لي أننا لن نواجه وضعاً مماثلاً في ذلك البيت المليء بالأفخاخ والعقبات.

حدقت مالون إليه مصعوقة: «هل أحضرت ڤيڤيان هولمز إلى البيت لأنك..».

ـ لأنني لم أستطع الابتعاد عنك أكثر من ذلك. رغم أن فاي هي التي اتصلت بها أولاً، إلا أنني شعرت بأن ليس بإمكاني المجازفة بالبقاء معك وحدنا. كنت في حالة سيئة تماماً، ولكني لم ألحق بك أي ضرر، يا حبيبتي.

وابتسم. تملك مالون شعور بأنه لو استمر هاريس بهذا الشكل مدة أطول، لفقدت توازنها وثباتها.

ـ لكن فاي لم تقبل المجيء؟

ـ كانت مشغولة..

فقاطعته باسمة: «طبعاً. ولهذا اتصلت هي بڤيڤيان...».

وسكتت، بينما هز رأسه: «كانت لهفتي تزداد لرؤيتك، وتساءلت عما إذا كنت أجازف بالذهاب إلى البيت. على كل حال، اتصلت بي فاي لتقول إن صديقتها ڤيڤيان تتشوّق لرؤية المنزل بعد أن حدثتها فاي عنه وعن شغفها به».

- وعند ذلك اتصلت أنت بڤيڤيان؟

لامس هاريس خد مالون بحنان: «عندئذ، اتصلت بها. أخبرتها أن لديّ تصوّري الخاص بالنسبة إلى البيت، لكنني أرحب بتلقي أي اقتراحات تحب أن تقدمها. وهكذا..».

وبدا الأسف في نظراته: «جئت ورأيتك، فشعرت بخفقان في صدري. بدوت رائعة وأنت تحتضنين الأزهار البرية، فتمنيت لو أن ڤيڤيان على بعد مئة ميل من هنا».

ابتسم وهو يضيف: «أردتك كلك لي وحدي، يامالون».

فقالت بنعومة: «ثم عدت تاركاً ڤيڤيان في السيارة».

- كنت بحاجة إلى قضاء بعض الوقت معك، أردت أن أعانقك. لقد شعرت حينذاك بضعف لم أشعر بمثله من قبل.

فسألته وهي ترتجف: «هل كنت.. كذلك حقاً».

- نعم. عدت إلى لندن رغم إرادتي وصممت على العودة في عطلة الأسبوع، والذهاب إلى فندق كليفتون باكراً لأحضرك إلى البيت، هذا إذا كنت لا تريدين النوم تحت السقف نفسه معي.

- وماذا؟

سألته ورأسها يدور فيما قلبها يخفق.

عانقها مرة أخرى، وشدّ قليلاً أثناء احتضانها: «لم أستطع الانتظار حتى الجمعة لأسمع صوتك».

فهمست: «وهكذا اتصلت بي ذلك الصباح».

- وأدركت، حالما قلت إنك راحلة، أنني لا أستطيع أن أدعك تذهبين وأنني أحبك بكل عصب من جسدي.

وسكت للحظة قبل أن يتابع: «عندما أدركت أنني لا أملك دليلاً أتعقبك به، أخذ العرق البارد يتصبب مني. كان عليّ أن أعثر عليك فالحياة من دونك يا حبيبتي، لا تُحتمل».

فتنهدت: «آه، يا هاريس».

- هل يعني كلامك أنك.. مسرورة لوجودي؟

فضحكت بمرح: «أنت تعلم ذلك».

- وهل تحبينني قليلاً؟

إنها تحبه، تحبه، تحبه: «بل.. أحبك كثيراً».

- يا حبيبتي.

فقد سيطرته على نفسه وجذبها إلى صدره حيث أبقاها طويلاً، ثم سألها بلهفة وهو ينظر في عينيها: «هل أنت واثقة؟».

- أجل، ومنذ تلك الليلة التي تصادمنا فيها في الحمام.

فسألها مذهولاً: «علمت حينذاك؟».

- كان هناك دلائل من قبل. لكنني، حينذاك، تأكدت من الأمر.

- حبيبتي الحلوة!

قال هذا بصوت خافت، وعانقها، ثم عاود الكرّة. توقف أخيراً وذراعاه حولها، ثم قادها إلى الأريكة حيث جلسا متلاصقين. عانقها وهو يهمس لها بتلك الكلمات السحرية التي تحب سماعها: «مالون، مالون، كم أحبك».

وعندما غاصت في وهج حبه، وعجزت عن الكلام، سألها: «وأنت؟».

ابتسمت ثم أضافت: «وأنا أحبك كثيراً جداً».

- الحمد لله.

بقي يحتضنها دقائق طويلة ثم قال: «لم أكن أعلم ما إذا كان عليّ أن آتي إلى هنا ليلاً أم في الصباح الباكر. لكنني عانيت الأمرّين، ولم أستطع أن أنتظر حتى الغد.. لم أكن واثقاً من طبيعة استقبالك لي».

ونظر إليها بابتسامة عريضة. فابتسمت له بحب، ثم تابع يقول: «وقفت عند العتبة حين فتحت لي الباب، متلهفاً لاستشف من ملامحك

شيئاً».

ـ آه، يا هاريس، شكراً لمجيئك.

لم تكن تتصور أنه قد يتردد إلى هذا الحد، وتابعت تقول من كل قلبها: «أنا أيضاً كنت أتعذب».

ـ آه، أنا آسف.

عانقها وكأنه يمحو ما عانته من عذاب. وعندما نظر في عينيها، أصبحت عيناه رزينتين. وسألها: «لماذا حاولت أن تتركيني؟ عليك أن تخبريني».

تورد وجهها وهي تعترف: «ظننت أنك ستحضر معك ڤيڤيان هولمز إذا جئت في العطلة. أنا آسفة يا هاريس، لكن مجرد التفكير في أنكما معاً بجانبي لا يمكنني أن أتحمله».

وقبل أن تنتهي كان يضمها إلى قلبه بشدة وهو يتمتم: «آه، يا حبيبتي».

ثم أبعدها عنه ونظر في عينيها: «هل تغارين؟».

ـ تبدو عليك الدهشة.

فضحك: «لم تخطر هذه الفكرة ببالي قط».

عانقته لأنها تحبه، فهي لا تكاد تصدق ما يحدث. وارتدت إلى الوراء، لترى وجهه وإذا بها تسمع هدير سيارة تقترب.

ـ يبدو أن أمي وجون عادا باكراً. أنا..

ـ أنت ماذا؟

ـ حسناً، أرادت أمي أن تعلم ما الذي حدث ليجعلني أحضر إلى هنا. لقد أخبرتها بأنني أحبك..

ابتسامة هاريس المفاجئة جعلتها تسكت لكنها شعرت بأن عليها أن تخبره بالبقية قبل أن تدخل أمها: «كما أنني أخبرتها بأن لديك صديقة».

ـ تعنين بذلك ڤيڤيان هولمز؟

أومأت، فابتسم وقال: «إذن يا حبيبتي، عليّ أن أخبرها الحقيقة.. ومن الأفضل أن أفعل ذلك قبل أن أسألها».

ـ تسألها ماذا؟

سألته عندما سكت عن الكلام: «حسناً، من المفروض أن أطلب من أمك أو من زوجها، ألا تعلمين؟».

ـ ماذا تطلب؟

سألته وهي تشعر بالارتباك.

ـ أظن أن العادات تقضي بأن أطلب يدك من أمك. أنا لم أفعل هذا من قبل، لكنني أود القيام بذلك وفقاً للأصول.

سألته بضعف: «تطلب يدي؟».

ـ نحن سنتزوج، أليس كذلك؟

سألها وقد تحوّلت ملامحه إلى الرزانة. ازدردت مالون بريقها بصعوبة، وقلبها يخفق بعنف. لم تكن تظن أنها..

ـ هل تتزوجيني؟ لن أستعجلك.

ـ يسعدني أن أتزوجك.

تنفس الصعداء: «شكراً يا حبي».

تمتم بذلك وهو يرفع يدها إلى شفتيه: «عندما نعود إلى بيتنا بعد شهر عسل طويل، قد يكون «هاركورت هاوس» جاهزاً لاستقبال سيدته».

وشهقت مالون بعجب: «أنا؟».

ـ أنت فقط.

وعانقها بحنان.

ـ آه، يا هاريس.

هتفت بذلك. ستكون سيدة «هاركورت هاوس» وزوجة السيد! ما أروع الحياة!

* * *